

~~XXXXXXXXXX~~

• وولف، ابراهيم •

• فلسفة المحدثين والمعاصرين •

~~12 Feb 70~~

~~XXXXXXXXXX~~

~~XXXXXXXXXX~~

~~3 Mar 65~~

~~2 Aug 68~~

~~1 JUN 70~~

1938
M. 284
C. 5

cat. 1 June 1938

بجدة التأليف والترجمة والنشر

الرسالة الخامسة

خلاصة العلم الحديث

فلسفة المحمدين والمعاصرين

تأليف

أ. وولف

أستاذ المنطق بجامعة لندن

طبعة ثانية

نقله إلى العربية

الدكتور

أبو الملا عفيفي

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

سلسلة المعارف العامة



الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المترجم

تعتبر هذه الرسالة جزءاً متمماً للرسالة الأولى من كتاب « خلاصة العلم الحديث » التي عنوانها « عرض تاريخي للفلسفة والعلم » ، فإن هذه تبتدى من حيث تنتهى تلك . غير أن الأستاذ « وولف » مؤلف الرسالتين قد نحا في كل منهما نحواً خاصاً وتوخى غرضاً معيناً : فاتبع في الأولى طريقة العرض التاريخي لمسائل الفلسفة والعلم ، ذاكراً أهم الحركات الفلسفية والعلمية التي قامت في كل عصر ، باحثاً العوامل التي ساعدت على قيامها أو على حبوطها ، متتبعاً المذاهب الفلسفية والعلمية تتبعاً تاريخياً ، أو بعبارة أصح مصوراً لنا تطور التفكير البشري في ناحيته العلمية والفلسفية منذ أكثر من خمسة وعشرين قرناً ، أى منذ بزغت شمس التفكير العلمى الفيلسفى فى أوربا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . أما رسالتنا فلم يكن المؤلف بدّاً من ترك طريقة العرض التاريخي فيها ، لأن العصر الذى كتب عنه لا يتجاوز نصف قرن ، ومثل هذا الزمن القصير لا يحتمل التقسيم إلى أدوار تاريخية ذات شأن . لذلك لجأ الأستاذ « وولف » — بعد مقدمة طويلة قيمة لخص فيها أمهات مسائل الفلسفة والطرق المختلفة التي عالج بها الفلاسفة حل هذه المسائل — إلى

وصف فلسفة المحدثين وأهم مميزاتها واتجاهاتها ، ثم ذكر تحت كل اتجاه أو كل مذهب خلاصات دقيقة مركزة عن عدد من الفلاسفة الذين يتمثل في فلسفاتهم ذلك الاتجاه ، وقد بلغت عدة الفلاسفة الذين كتب عنهم تسعة وثلاثين تتمثل فيهم النزعات الفلسفية والفلسفة العلمية في كل واحد منها وضروب نشاطها في أوروبا وأمريكا وأفريقية الجنوبية .

ولئن كانت مسائل العلم قد عولجت في الرسالة الأولى مستقلة نوعاً ما عن مسائل الفلسفة ، وذكر المؤلف قصة كل منهما إلى جانب الأخرى ، مع الإيماء أحياناً إلى وجوه الارتباط أو وجوه الاختلاف بين الاثنين ، فإننا في الرسالة الثانية نجد القصتين ممتزجتين إلى درجة لا نستطيع معها التمييز بين عناصرهما . والحق أن الفلسفة لم تتجه اتجاهها علمياً بحثاً ، بيولوجياً أو ميكانيكياً أو كيميائياً أو رياضياً وتنصبغ بصبغة الناحية العلمية الخاصة التي تخضع لها إلا في العصر الأخير الذي هو موضوع هذه الرسالة ، نعم اصطحب العلم والفلسفة زمناً طويلاً ، بل اتحدتا وتوسر التمييز بين ما هو علمي وما هو فلسفي ، واستمر الحال كذلك حتى أواسط القرن السابع عشر ، ولكن لم نعهد في تاريخ الفلسفة مذاهب فلسفية كاملة قامت على دعائم علمية صرفة إلا عند الفلاسفة المحدثين والمعاصرين . أما الاتحاد الذي أشرنا إليه فلم يكن لأن نظرية علمية خاصة قد أثرت في وجهة نظر الفيلسوف ، بل لأنه لم تكن وضعت بعد حدود فاصلة بين العلوم القائمة على مناهج البحث التجريبي ، والعلوم القائمة على النظر والعقل المجرد .

وإننا إذا استثنينا طائفة المذاهب المثالية والمذاهب الروحية الواردة في هذه الرسالة ، صح لنا القول بأن مذاهب المحدثين والمعاصرين هي نظريات فلسفية علمية معاً مستندة إلى وجهات نظر علمية خاصة في التطور أو في تركيب المادة ، أو في معنى الحياة ، أو معنى الزمان والمسكان وهكذا : وأن لا فرق في رسالتنا بين الفيلسوف العميق في فلسفته والعالم العميق في علمه .

ولقد كانت هذه الميزة نفسها من أكبر العوامل التي زادت في صعوبة نقل هذه الرسالة إلى اللغة العربية ، إذ كثرت فيها المصطلحات الفلسفية العلمية الحديثة التي لم تستقر بعد في لغاتها الأوروبية والتي لا يكاد يتمدى استعمالها الواضعين لها ، وكلهم أحياء أو ممن ماتوا من عهد قريب ، وهذه المصطلحات غريبة في لغاتها غير محدودة المفهوم ، فمرادفاتها الجديدة في اللغة العربية أغرب وأقل تحديداً . على أنني لم ألتجأ إلى وضع مرادفات للاصطلاحات الأفرنجية في كل حالة ، بل كثيراً ما استعملت اصطلاحات عربية قديمة تعبر عن المعاني الجديدة أو تقرب منها بقدر الإمكان . وهذه الرسالة على قصرها جامعة لزبدة التفكير الفلسفي والعلمي القديم والحديث . إذ الحديث قائم أبداً على التراث القديم ، ويتبين لقارئها مدى نجاح أو إخفاق العقل البشري في محاولته بشتى الأساليب حل المشكلة الأساسية التي نصب نفسه لحلها : أعني ما هي الحقيقة وموقف الإنسان منها ؟ غير أن المؤلف قد لجأ إلى طريقة الإيجاز والتركيز وقصر همه على ذكر النقط الأساسية في فلسفة كل فيلسوف ؛ بل لقد بالغ في هذا أحياناً إلى

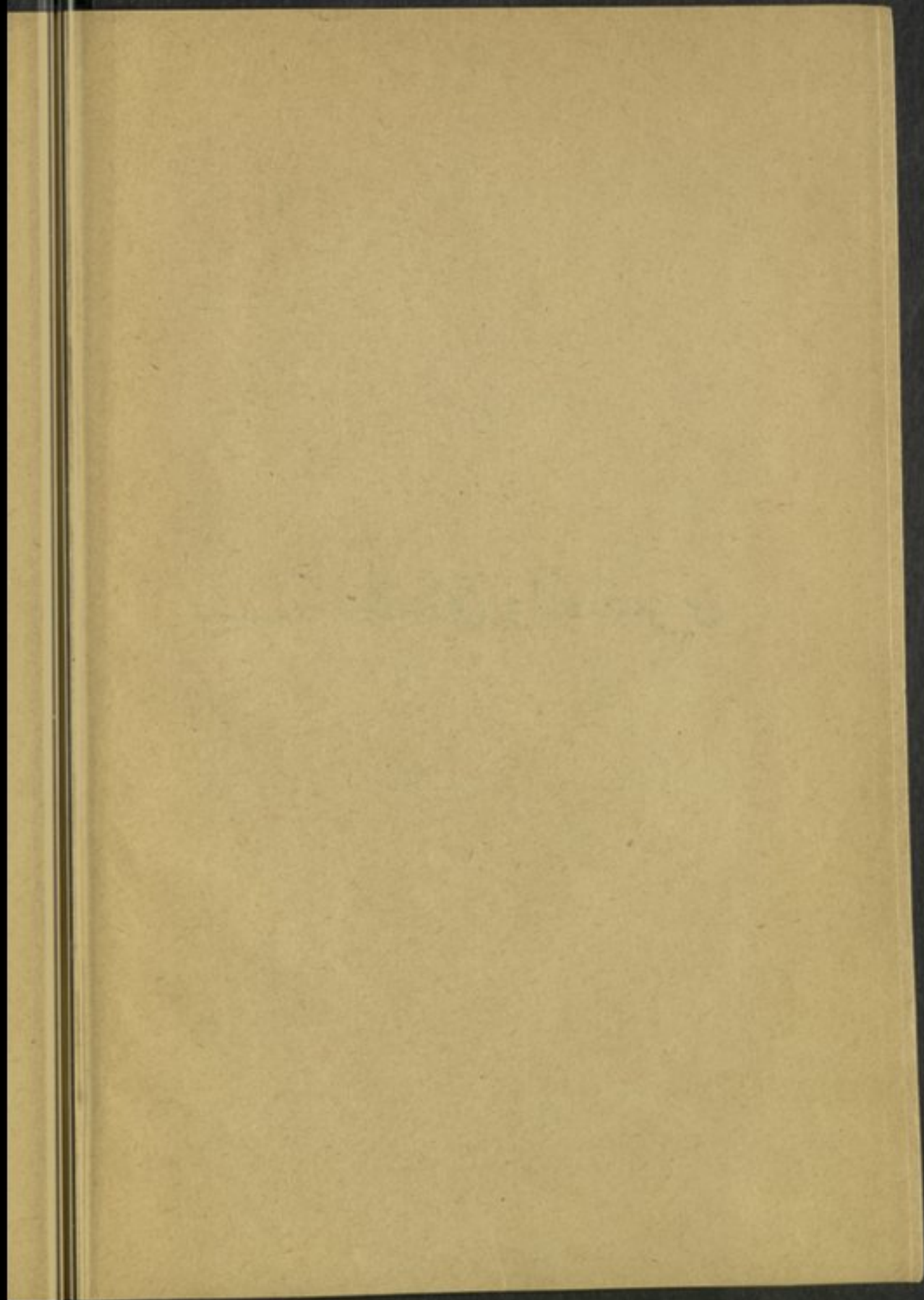
درجة أن القارىء لا يكاد يظفر من خلاصاته بفكرة واضحة عن الفيلسوف الذى يكتب عنه . وهذه صعوبة ثانية نضيفها إلى سابقها . ولكن المؤلف لم يدع فى الوقت نفسه أن رسالته أكثر من دليل يسترشد به طلاب الفلسفة ومحبوها فى الرجوع إلى مطولات هذا العلم ، ومقدمة أو مذكرة تحصر مسائل الفلسفة وحلولها وأهم النزعات فيها شأن كل مقدمة أو مذكرة .

ويجب ألا يفوتنى هنا أن أذكر أن بعض الفلاسفة (وهم قليلون لحسن الحظ) ممن كتب عنهم المؤلف قد ذكروا أشياء للدين عليها مأخذ ، إما لأنها تمس الأديان فى صميمها ، أو لأنها لم توضع فى عبارات تتفق والروح التقليدية المشبعة بالاحترام والعطف عند معالجتهم بعض مسائل الدين معالجة فلسفية . أما الآخرون فمنهم من كان دينيا فى اعتقاداته وشعوره إلى حد كبير . ونحن نحافظ على الأصل ، وتأدية لآمانة النقل ، قد تركنا كل فيلسوف يتكلم عن نفسه ويشرح ما يقصده من فلسفته ، وللقارىء أن يحكم له أو عليه .

هذا وقد راعينا فى نقل هذه الرسالة المحافظة على الأصل بقدر المستطاع من غير أن نلتزم حرفية الترجمة التى كثيرا ما تؤدى إلى استغراق المعنى على القارىء أو نذهب فى التصرف فى معانيه إلى الحد الذى يفسد عليه مراده ونرجو أن نكون قد وفقنا أو قاربنا التوفيق فى هذه المهمة .

القاهرة فى { ٢٣ صفر سنة ١٣٥٥
١٤ مايو سنة ١٩٣٦ }
مترجم الرسالة
أبو العلاء عفيفى

فلسفة المحدثين والمعاصرين



الفصل الأول

تحديد الفلسفة

إن الرابطة القوية التي كانت في بادئ الأمر تربط الفلسفة بالعلوم قد انفصمت عراها بمضى الزمن لما كثرت أنواع المعارف الإنسانية وتعددت نواحي تلك الكثرة فأدت تدريجيًا إلى ضرورة توزيع الجهود العقلية وتوجيهه وجهات مختلفة؛ فلم يقف الأمر عند وضع حد فاصل بين الفلسفة والعلوم فحسب، بل إن العلوم نفسها قد تميزت أجزاؤها بعضها عن بعض، وتشعبت شعبًا كثيرة، وكذلك انقسمت الفلسفة إلى طائفة مختلفة من الدراسات. وعلى الرغم من هذا ظل بعض العلماء حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتقد أن المعرفة الإنسانية وحدة لا تقبل التجزئة، وأن العلوم إن هي إلا فروع خاصة من الفلسفة. غير أن الحال لم تدم على ذلك طويلا، فقد قضى على هذا الاعتقاد في غضون ذلك القرن، وبدأ يظهر العداء الصريح بين العلم والفلسفة، وهو عداء ربما يرجع السبب الأكبر فيه إلى بعض الفلاسفة المثاليين من الألمان الذين بالغوا في تعديهم على مسائل العلوم فأثاروا بذلك حنقًا عامًا عند العلماء. ومن الغريب أنك تجد هذه الروح ظاهرة حتى في بلد كاسكتلنדה التي اشتهرت بأن كل

رجل فيها فيلسوف : فتجد مثلاً عالماً كبيراً مثل لورد « كلفن » لا يخفى
ازدراءه واحتقاره لفيلسوف مثل « إدوارد كيرد » ، وهما أستاذان معاً في
جامعة « جلاسجو » . ولكن هذه العداوة قد تلاشت شيئاً فشيئاً ،
ودخل كثير من العلماء في زمرة الفلاسفة . أما اليوم فيوشك أن يحدث
تدخل العلماء الحديثين في شؤون الفلسفة وتعديهم على مسائلها من الارتباك
والصعوبات ما أحدثه تدخل الفلاسفة وتعديهم على مسائل العلوم منذ
قرن مضى .

والذى يعنيننا هنا إنما هو تقسيم الفلاسفة إلى أقسام أو فروع مختلفة ،
وذكر بعض الشيء عن كل واحد من هذه الفروع لنمهد بذلك السبيل
إلى جعل دراسة فلسفة المُحدثين والمعاصرين مفهومة بوجه عام .

للفلسفة ثلاثة فروع أساسية هي :

(١) « الأنطولوجيا » أو البحث في طبيعة الوجود وحققيقته
(٢) « الابستمولوجيا » أو نظرية المعرفة ، أو دراسة المسائل المطلقة
المتصلة بطبيعة العلم الإنسانى وصوابه وخطئه وحدوده التى
يقف عندها

(٣) « الاكسيولوجيا » ، وهو البحث فى ماهية القيم وحققيقتها
ودلالاتها ، (ويراد بالقيم هنا الخير والجمال) .

وقد يطلق اسم الميتافيزيقا (علم ما بعد الطبيعة) على البحثين الأولين .
أى مبحثى الوجود والمعرفة معاً ؛ ولكن يُتساهل أحياناً فيطلق اسم
الميتافيزيقا على مبحث الوجود وحده ، أو مبحث العلم وحده . ويدخل

تحت فلسفة القيم فرعان : هما علم الأخلاق أو الفلسفة الخلقية ، وهي البحث في المثل العليا أو المعايير التي يُقاس بها السلوك الإنساني ؛ وعلم الجمال ، أو فلسفة الجمال ، وهي البحث في المثل العليا ، أو المعايير التي يقاس بها الفن .

وللفلسفة فروع أخرى غير هذه ؛ منها المنطق ، وهو العلم الذي يبحث عن الشروط العامة للتفكير الصحيح . والمنطق منزلة خاصة من بين سائر الدراسات الأخرى إذ يعد بحق مقدمة أساسية لها جميعها ، بما فيها الفلسفة . ومن الفروع الأخرى للفلسفة « علم النفس » أو دراسة الحياة العقلية ؛ وقد استقل هذا العلم أخيراً عن الفلسفة . ومنها دراسات أخرى تسمى بأسماء مختلفة ، مثل فلسفة القانون ، وفلسفة الدولة وغير ذلك . وهذه في الحقيقة دراسات خاصة نشأت عن البحث في أمهات مسائل القانون والسياسة ونحوهما ؛ ولها ارتباط وثيق بهذه الأنواع من الأبحاث . أما الفروع الفلسفية التي لها صبغة عامة فهي الثلاثة الأولى ؛ أي مبحث الوجود ، ومبحث العلم ، ومبحث القيم الآتفة الذكر . ومبحث الوجود أعظم هذه الفروع الثلاثة خطراً . إذ هو المحور الذي تدور حوله الدراسات الفلسفية جميعها ؛ أما الفرعان الآخران فليسا سوى وسيلة نستعين بها على فهم الأول وتوضيح معانيه . لذلك سنوجه أكبر اهتمامنا في المقال الآتي إلى الناحية الانطولوجية للمذاهب الفلسفية التي يتناولها بحثنا ؛ أما الناحيتان الأخرتان فسننم بهما إلماماً بسيطاً . نعم إن بعض الفلاسفة الحديثين قد قصروا همهم على البحث في المسائل الأبتمولوجية . ولكن

المقام هنا لا يسمح إلا ببحث القليل من هذه المسائل ؛ كما أن المجال لن يتسع لذكر أى شيء عن الفلاسفة العديدين الذين عالجوا مسائل فلسفية خاصة ؛ فإنه على الرغم من أهمية ما كتبوه في هذا الصدد لن نستطيع في هذه العجالة أن نوفي آراءهم حقها من الشرح والتعليق بحيث تمثل أمام القارئ بصورة واضحة مشوقة . وليس في الإمكان أيضا أن نحصر هنا جميع الآراء المختلفة التي ترجع في جوهرها إلى فكرة عن الوجود واحدة ، ولهذا كان لا مناص لنا من إغفال بعض الأعلام المشهورين في عصرنا الحاضر . ومع كل ذلك فقد ذكرنا ما يربى على الأربعين فيلسوفا ممن يمثلون الفلسفة الحديثة والمعاصرة ؛ وهو عدد قد يرى فيه مؤرخو الفلسفة في الأزمنة المقبلة شيئا من السخاء إذا قاسوه بالعصر الذي نؤرخ له .

الفصل الثاني

مذاهب الفلسفة

للفلسفة مذاهب متعددة مختلفة ، ومن الخطأ والتضليل أن ندخلها جميعها تحت طائفة قليلة من الأسماء . نعم قد يجمل بنا أن نحصر الصفات الهامة التي تتميز بها المذاهب الفلسفية ، غير أننا يجب ألا نقصر ههنا على إدراك الفوارق الأساسية بين الفلسفات المختلفة ، بل يجدر بنا أن نعلم أيضا الفوارق النوعية التي تتميز بها المذاهب الفلسفية التي تنتمي إلى أصل واحد . وربما كانت أيسر طريقة لتوضيح أهم هذه الفوارق أن نشير بالإجمال إلى المسائل الرئيسية التي لا مناص للفلاسفة من مواجهتها أولا ، ثم نعقب على ذلك بذكر الأماليب الفلسفية المختلفة التي لجأ إليها الفلاسفة في حل كل مسألة من هذه المسائل في العصر الذي نحن بصدد الكلام فيه .

١ . مسائل الوجود وماهولها :

(١) ربما كان السؤال الآتي أول سؤال أثاره التفكير الفلسفي في الغرب وهو : هل في الوجود ، في قرار الأحداث الكونية المتغيرة ، شيء ثابت ؟ وقد انقسمت الفلاسفة في الإجابة عن هذا السؤال إلى طائفتين ؛ فمن قائل ، وهم كثيرون في كل عصر من عصور الفلسفة ، بوجود جوهر ما

وراء الأحداث المتغيرة التي تحدث في الكون ؛ ومن منكر لحقيقة أى شىء غير الأحداث المتغيرة كما هي .

أما في عصرنا الحاضر ، فبفضل النظرية الطبيعية الحديثة ، أصبحت الفلسفة القائمة على القول بوجود الأحداث الكونية لا غير ، أكثر شيوعاً من الفلسفة القائلة بوجود الجوهر وللتفرقة بين الرأيين أطلقنا اسم «مذهب الوجود المتغير» على الأول ، واسم «مذهب الجوهر» على الثاني .

(٢) المسألة الثانية ، ويمكن وضعها في الصيغة الآتية ، وهي : هل هناك حقيقة مطلقة واحدة ، أو حقيقتان مختلفتان ، أو حقائق متعددة ؟ والأجوبة الممكنة عن هذا السؤال واضحة بيّنة ؛ فإن بعض الفلاسفة يدينون بوجود حقيقة مطلقة واحدة ، ويدين آخرون بوجود حقيقتين مختلفتين ، على حين تعتقد طائفة ثالثة أن الحقائق كثيرة ومتعددة . ويسمى المذهب الأول : مذهب «وحدة الجوهر» ، والثاني مذهب «اثنيانية الجوهر» والثالث مذهب «تعدد الجوهر» . وأول هذه المذاهب وثالثها أكثرها شيوعاً .

(٣) المسألة الثالثة ، وهي : هل الحقيقة المطلقة كلها من نوع واحد ؟ ، ومن اليقين أن أصحاب مذهب وحدة الجوهر يجيبون عن هذا السؤال بالإيجاب . أما أصحاب مذهب تعدد الجوهر فقد يقولون بالإيجاب كذلك وقد لا يقولون ؛ فإن بعضهم مثلاً يعتقد بوجود كثرة من الأرواح كلها في جوهرها من نوع واحد ، وينكرون حقيقة ما عداها ؛ على حين يعتقد آخرون بوجود كثرة من الجواهر الفردة (الذرات) كلها في جوهرها

من نوع واحد ، وينكرون حقيقة كل ما عداها . ولنا أن نسمى كلا من هذين المذهبين بمذهب وحدة الكثرة ، ولكن هناك طائفة أخرى من أصحاب التعدد يقولون بوجود كثرة من الحقائق المختلفة (أجسام وأرواح الخ) ، وهذا رأى يمكن تسميته بمذهب «تعدد الكثرة» . وبديهي أن يُعدّ مذهب «وحدة الجوهر» من مذاهب الوحدة .

(٤) المسألة الرابعة ، وهي : كم عدد الصفات الأساسية (أو الصفات التي لا يمكن تحليلها إلى أبسط منها) التي تتصف بها الحقيقة المطلقة (أو الحقائق المطلقة المتعددة) فمن قائل بأنها صفة واحدة ، وهذا مذهب «وحدة الصفات» ، ومن قائل بأنها أكثر من صفة ، وهو مذهب «تعدد الصفات» أما إذا اعتبرت الصفات الأساسية اثنتين فقط فلا بأس من اطلاق اسم خاص هو «مذهب اثنيية الصفات» على هذا الرأى . وكل واحد من هذه الفوارق التي بين المذاهب يؤدي بنا طبيعا إلى فوارق أخرى بينها بحسب نوع الصفة أو الصفات الأساسية التي تتصف بها «الحقيقة المطلقة» . فإن قيل مثلا إن «الحقيقة» ليس لها إلا صفة واحدة هي العقل أو الشعور ، سمي هذا الرأى «المذهب المثالي» أو «المذهب العقلي» أو «المذهب الروحي» ؛ أما لو أريد بهذه الصفة الفكر بوجه خاص ، فيسمى المذهب : بمذهب العقل العام^(١) . وإن أريد بالصفة

(١) وهو اصطلاح يطلق على أى مذهب فلسفى يقول بأن الصفة الأساسية للحقيقة هي الفكر ، ويفترن هذا الاصطلاح عادة بأسم هيجل أكثر من غيره من الفلاسفة (المترجم)

الأساسية الإرادة سمي المذهب القائل بها « مذهب الإرادة » . هذا ويسمى المثاليون الذين يقولون بوحدة الجوهر « بأصحاب المثال المطلق »^(١) والذين يقولون منهم بوجود كثرة جوهرية ، يعرفون عادة بأصحاب « الكثرة الروحية » أو أصحاب « الذرات الروحية »^(٢) . أما الفلاسفة القائلون بأن الصفة الأساسية هي « المادة » فهم أصحاب المذهب المادي ؛ وأولئك الذين يقولون هي « الطاقة » هم أصحاب مذهب الطاقة ؛ والقائلون بأنها شيء يختلف عن العقل وعن المادة ، ولكنها شيء مقوم لهما معاً ، هم أصحاب « الحياد » ويسمى مذهبهم « مذهب الحياد » أو مذهب « الوحدة المحايدة » .

(٥) المسألة الخامسة ، وهي : كيف ترتبط أجزاء « الحقيقة » أو صورها أو الوحدات التي تتألف منها ؟ . والآراء في هذا الموضوع أيضاً كثيرة والمذاهب متشعبة ؛ فرأى يفكر وجود رابطة حقيقية بين الموجودات ، أو بين الحوادث التي تجري في الكون ، وينسب كل شيء إلى المصادفة والاتفاق ؛ ويعرف هذا بمذهب « المصادفة » . ورأى يقول بأن هناك قانوناً أو نظاماً منبثقاً في جميع أنحاء الكون تجري الأمور بمقتضاه ، وأن لا شيء يحدث في الكون على سبيل المصادفة ، ويعرف « بمذهب الضرورة » . وهذا المذهب ، كما ترى ، يناقض المذهب السابق كل المناقضة . وهناك مذهب آخر في الضرورة كثيراً ما يخلط الناس

(١) فهم يقولون بوجود حقيقة جوهرية واحدة ، ويعتبرون العقل دون غيره الصفة الأساسية التي تتصف بها هذه الحقيقة ، ومن هؤلاء هيغل . (الترجم)

(٢) ومنهم « ليبنتز » يقولون إن الحقائق متعددة ويعتبرون العقل وحده الصفة الأساسية التي تتصف بها هذه الحقائق . (الترجم)

خطأ بينه وبين المذهب الذي نتكلم عنه ، وهو مذهب من يقولون إن كل ما يجري في الكون من حوادث إنما يصدر عن عالٍ ضرورية خاضعة لقوانين المادة والحركة ، وهو مذهب معروف بالمذهب « الميكانيكي » أو مذهب الجبر ، أو النظرية الميكانيكية .

وبين المذهب الميكانيكي البحت (أو مذهب الجبر كما يسمى أحياناً) ومذهب المصادفة البحتة مذاهب أخرى كثيرة وسط بين هذين الطرفين ، يقول أصحابها إن الحوادث الطبيعية إنما تظهر إلى حد ما من تلقاء نفسها وإن في طبيعتها دائماً النزوع إلى الظهور بصورة جديدة ، وإن الإنسان حر مطلق التصرف في أفعاله . وتعرف هذه المذاهب بأسماء متعددة مثل المذهب الحيوي ، ومذهب « التطور الإبداعي » ، ومذهب « التطور الفجائي » ، ونادراً ما تسمى بمذهب الحرية ، أو مذهب الاختيار . (وليلاحظ هنا أن هذه المذاهب الوسطى التي ذكرناها لا تنكر على أصحاب مذهب الضرورة ما يقولون به من وجود أساليب مختلفة للنظام في الكون ، المعروف لنا منها وغير المعروف) . أما مذهب « الغائية » فهو المذهب القائل بوجود غايات حقيقية أو مقاصد ترمى الحوادث الطبيعية إلى تحقيقها — وهو يناهض من جهة مذهب الميكانيكيين الذين يقولون إن كل شيء له علة ثابتة مقدره أزلاً ؛ ويناهض من جهة أخرى آراء بعض الفلاسفة المثاليين الذين يقولون إن « الحقيقة المطلقة » حقيقة أزلية ؛ وبذلك يصورون العالم في فلسفتهم بصورة جامدة ، لا تقبل التغيير ولا التبديل .

(٦) المسألة السادسة وتتلخص فيما يأتي : هل في الوجود أى موجود أو أى شيء تصدق عليه صفة الألوهية ؟ ويجب عن هذا السؤال قوم بأنهم لا علم لهم بذلك ، ويعرف مذهبهم باللاأدرية ، ويفكر آخرون بتاتا وجود أى موجود تصدق عليه هذه الصفة ، وهؤلاء هم الملحدون ؛ وإن كان الناس عادة يطلقون صفة الإلحاد إطلاقا غير محدود بحسب أهوائهم ومشاربهم . أما المذاهب المثبتة لوجود الله فالمشهور منها مذاهب المؤلوة بنوعيتها - أى التى تنكر منها الشرائع السماوية المنزلة عن طريق الوحي والتى لا تنكر - ثم مذهب « وحدة الوجود » . فالمؤلوة الذين لا ينكرون الشرائع السماوية والوحي يعتقدون بوجود إله له ذات ، خالق للانسان والعالم مخالف لهما مع قربه منهما واتصاله بهما ، على حين يتحاشى الآخرون أى المنكرون للشرائع السماوية والوحي ، وأصحاب مذهب « وحدة الوجود » كل نوع من أنواع التشخيص أو التجسيم أو التشبيه في صفات الله ، وينزهونه عن كل هذا . وينفرد أصحاب « وحدة الوجود » بقولهم إن الله هو العالم . ولهذا يصلون إلى قواعد أشبه بالقواعد العلمية .

(٧) المسألة الأخيرة : وهى خاصة إلى حد ما بمن يقولون بوجود ذات إلهية ، وتتلخص فيما يأتي :

هل عالم الحقيقة نظام كوني واحد محكم متصل الأجزاء ، أم هل هناك عالم وراء الطبيعة مختلف عنها قادر على التدخل في نظامها ؟ أما اللاأدرية والملاحدة فقد يرفضون النظر في هذه المسألة لأنهم لا يرون للسؤال معنى ؛ ولأن الطبيعة في نظرهم هى الوجود الحقيقي . وقد يرفض

النظر في هذه المسألة أيضاً بعض الفلاسفة المثاليين ممن ينكرون وجود عالم طبيعي مادي ، وقد يرفضه آخرون غيرهم من المثاليين الملاحدين ويُثبت المؤلّفة جميعاً وجود موجود فوق الطبيعة ، ولو أن بعضهم ينكر — كما أسلفنا — الوحي والمعجزات وخوارق العادات وكل ما من شأنه أن يتناقض مع القوانين الطبيعية المألوفة . وينكر أصحاب « وحدة الوجود » بتاتا وجود أى شيء وراء الطبيعة أو العالم ، لأن العالم والله في نظرهم حقيقة واحدة . ويقرر بعض أتباع مذهب الواقع وجود إله في العالم ، ولكنهم يقولون : إنه جزء من العالم أو قوة فيه ، وليس شيئاً خارجاً عنه ؛ ولهذا لا يقولون بوجود حقيقة أخرى وراء الطبيعة . أما الذين ينكرون وجود حقيقة وراء العالم الطبيعي ، معتمدين في ذلك على أن الوجود الحقيقي وحدة نظامية محكمة ، فيعرفون بالطبيعيين . وكثيراً ما يخلط الكتاب بين مذهب الطبيعيين هؤلاء ومذهب آخر هو مذهب اللاديين مع وجود فارق كبير بين المذهبين ، لأن الطبيعيين لا ينكرون وجود العقل والروح والله ، بينما ينكر أصحاب المذهب المادي (في أخص معانيه) هذه الثلاثة جميعها

ب. مسائل المعرفة ومحلها :

(١) المسألة الأولى المتعلقة بما يسمى عادة « بالمعرفة الإنسانية » هي البحث عما إذا كان في إمكان العقل الإنساني معرفة أى شيء معرفة حقيقية على سبيل اليقين ؛ وهو سؤال أجاب عنه الفلاسفة الشاكون

بالسلب . [ولسكنا يجب أن نفرق هنا بين مذهب الشاكين في إمكان الوصول إلى العلم من حيث هو ، ومذهبي الشاكين واللاأدريين الذين يرتابون في إمكان وصول الإنسان إلى العلم بالله خاصة — أو بما يسمونه الحقيقة المطلقة — أو ينكرون وجود مثل هذا العلم بتاتا] .

ويقرب من مذهب الشاكين في العلم « مذهب الأسطوريين » إلا أنه يختلف عنه في أنه لا يعد القصور في العلم خاصا بالعقل الإنساني ، بل لازما من لوازم العقول من حيث هي ، سواء أكانت عقولا إنسانية أم فوق الإنسانية (إن وجدت) . ويقرب منه أيضا « مذهب العمليين » الذي يتلخص في أن الفارق الحقيقي بين نوعين من العلم ليس في أن أحدهما صحيح والآخر فاسد ، بل هو أن أحدهما منتج عمليا ونافع والآخر مضال وضار ؛ ويصح وصف العلم النافع بأنه صحيح ، والضار بأنه فاسد . ونحن إذا قارنا « الأسطوريين » « بالعمليين » وجدنا مشرب الطائفتين واحداً على وجه التقريب ، بل وجدنا الأولين منهم يجاهرون في صراحة وجرأة بالقول بأن الاعتقادات — حتى ظاهرة البطلان منها — قد يكون لها قيمة عملية في الحياة ، وأن هذه القيمة العملية هي كل ما يعينهم أمره .

والرأي القائل بإمكان المعرفة هو رأي الأدريين — وهو اصطلاح نادر الاستعمال في الفلسفة لأن الأدرية لها فروع كثيرة تختلف باختلاف وجهة نظر كل منها في المسألة التي سنوردها بعد هذه ؛ ولذلك شاع في الفلسفة أسماء فروع المذهب « الأدري » لا « الأدرية » نفسها .

(٢) المسألة الثانية : (وهي مسألة لا تعلق لها طبعاً بالفروع المختلفة

لمذهب الشك) ، ويمكن وضعها في الصيغة الآتية : كيف ترتبط العمليات العقلية — التي ندرك بها الأشياء — بالأشياء ذاتها ، (أى بالأشياء المعلومة) ، أو بالعكس كيف ترتبط الأشياء المعلومة بالعلم ؟ وقد اختلفت الفلاسفة في هذا الموضوع على ثلاثة مذاهب : الأول مذهب التجريد^(١) . ويقول أصحاب هذا المذهب : إن العقل تصل إليه آثار حسية من العالم الخارجي لا يدري عنها على ما هي عليه ، ولكنه في حالة إدراك هذه الآثار يخضع عليها من لدنه صوراً خاصة ، مثل وضعها الزماني والمكاني والعلّي . (ويعرف هذا المذهب أيضاً بالمذهب النقدي ، وبالمذهب المثالي النقدي) .

المذهب الثاني مذهب « المثال الوجودي » ، ويقول أصحابه إن طبيعة كل شيء عقلية ، بل إن وجودها نفسه يتوقف على عقلٍ مدرك لها ، أو كائن يعلمها ، وليس من الضروري أن يكون ذلك العقل العقل الإنساني المحدود ، بل العقل المطلق أو العقل العام .

(١) وهو في الأصل مذهب عمانوئيل كُنت الذي يقول : إن علمنا بالأشياء لا يستمد من إدراكنا الحسية لهذه الأشياء ، بل إن العقل المجرد بما لديه من المعاني البديهية البعثة المستقلة عن التجربة ، يؤلف من مجموعة التجارب الحسية الواصلة إليه من شيء ما فكرة عامة عن هذا الشيء ، بعض عناصر هذه الفكرة مستمد من التجربة والبعض الآخر مستمد من هذه المعاني الأولية التي يعلمها العقل المجرد بطبيعته . فالعقل أداة تشكل الاحساسات وتخلق منها أفكاراً ؛ وتشكل التجارب الحسية المختلطة وتخلق منها وحدة فكرية هي ما نطلق عليه اسم « الشيء » . والبحث في وصول العقل إلى هذا هو ما يسميه كُنت باسم Transcendentalism ويقصد بذلك البحث فيما وراء الإحساسات والتجارب كما يتبين من عبارته الآتية : « أقول إن المعرفة تتجاوز الحس إذا كانت تتعلق بإدراكات العقل الأولية للأشياء أكثر من تعلقها بالأشياء ذاتها » راجع كتابه « نقد العقل المجرد » Critique of Pure Reason ص ١٠ . (الترجم)

الرأى الثالث ، وهو رأى أصحاب النظرية القائلة بأن الأفكار صور الحقائق ، ويتلخص فى أن الموجودات على قسمين : معقولات (أو أفكار) تستند فى وجودها إلى العقل وتتكشف له مباشرة من غير وساطة ؛ وذوات أو أعيان حسية مستقلة فى وجودها عن العقل ، ولا تتكشف له إلا بطريق غير مباشر ، أو بالاستنتاج من عمليات عقلية تصل بين العقل والأشياء .

الرأى الرابع : وهو مذهب الواقعيين ، وهو مذهب من يثبت للأعيان الخارجية وجودا واقعيا مستقلا عن أى عقل يدركها ، وأن العقل إنما يدركها إدراكا مباشرا على ما هى عليه بقدر طاقته . وهذا المذهب أكثر المذاهب المتقدمة أتباعا ، وله صور كثيرة يستحيل علينا تناولها هنا .

(٣) المسألة الثالثة من مسائل العلم هى البحث فى طرق العلم أو مناهجه .

للمعرفة ، على الأقل ، ثلاثة مناهج مختلفة قال بها الفلاسفة على تفاوت فيما بينهم ، واختلاف كبير فى الأهمية التى تراها كل طائفة منهم لمنهجها ، فإن بعضهم يفضل أحد هذه المناهج والبعض الآخر يفضل غيره . فالتجربيون مثلا يعتبرون الحس أهم مصدر للمعرفة الحقيقية ، والوضعيون يعتبرون التجربة المصدر الوحيد لكل معرفة ويعارضون فى أى نوع من أنواع النظر الميتافيزيقى . أما العقليون فينزلون العقل أعلى منزلة ، ويبالغون فى أهميته وأهمية كل استدلال يستند إلى القوانين العقلية العامة أو يسير بمقتضاه ؛ على حين يبالغ الذوقيون^(١) فى تقدير قيمة الذوق الذى يعدونه

(١) قد ترجمت كلمة (intuition) إلى العربية بكلمات كثيرة منها الحدس =

نوعاً أولياً من الإدراك ، يدفع إليه الشعور الوجداني والفريزة ولا يرقى إلى درجة التعقل والتجريد كما هو الحال في التفكير والإدراك . و « للذوق » بهذا المعنى شأن كبير ومنزلة خاصة في الفلسفة الحديثة .

والطريقة الثالثة والأخيرة هي طريقة الصوفيين الذين يرون أن في استطاعة البشر أن يدركوا الله (أو الحق) إدراكاً مباشراً يسمونه بالشهود وهو إدراك تعجز الألسنة عن وصفه .

غير أننا يجب أن نلاحظ أن مؤيدي أي مذهب من هذه المذاهب الأخيرة كثيراً ما يعترفون بصحة قوى الإدراك غير القوة التي يدينون بها وإن كانوا ينزلون هذه القوى منزلة ثانوية بالقياس إلى القوة الخاصة التي هي أساس مذهبهم ، ويكون ذلك عادة بافتراض درجات مختلفة للمعرفة . فنجد الصوفي مثلاً لا ينكر ما لكل من « الذوق » والعقل والإدراك الحسي من أثر وقيمة في معرفته ، كما لا ينكر القائل بالذوق قيمة العقل والإدراك الحسي في معرفته وهكذا .

ح . مسائل الفهم أو المثل العليا ومناهج البحث فيها :

إذا كانت الأشياء مما يعنى الإنسان أمرها وضع لها قيمة ، أو قدرها .

== واللغة والبدية والفطرة والافتطار وغيرها — ولكن أفضل كلمة « الذوق » لأنها تعبر تعبيراً دقيقاً عن ذلك النوع من المعرفة التي يجدها الإنسان في نفسه من غير إعمال للفكر وبتذوقه تذوقاً ولا يستطيع تفسيره أو التعبير عنه : وتستعمل هذه الكلمة في عرف المتصوفين لتأدية المعنى الذي يقصده برغسون وأمثلة من كلمة (Intuition) . أما الفلاسفة الإسلاميون فيستعملون كلمة « الوهم » لنوع من أنواع « الذوق » وهو في نظرم نوع من الفريزة ، فيه مثلاً تدرك الشاة عداوة الذئب . (الترجم)

ومن البديهي أن الأشياء تتفاوت تفاوتاً عظيماً من حيث القيم الموضوعية لها ، فإن كثيراً من الأشياء ، إن لم يكن معظمها ، لا تقوم إلا من حيث إنها وسيلة لغاية ما . ولكن بعض الأشياء قيمتها في ذاتها لأنها غايات في نفسها لا وسائلٌ لغيرها . وتسمى القيم التي من هذا النوع الأخير بالقيم — أو المثل العليا ، وهي وحدها موضع بحث الفيلسوف .

(١) المسألة الأولى من مسائل القيم وهي : ما هي القيم — أو المثل العليا — وكم عددها ؟ قد جرى العرف باعتبارها ثلاثة : الجمال والخير والحق ؛ ولكن قد يضاف إليها أحياناً قيمة رابعة يسمونها القيمة الدينية أو التقديس ، وإن كان جمهور الفلاسفة يكادون يجمعون على أن مهمة الدين العناية بحماية القيم الثلاث الأولى أكثر من عنايته بوضع قيمة رابعة تضاف إليها . وفي المسألة آراء أخرى غير هذه ، ولكن لا حاجة بنا إلى مناقشتها هنا .

(٢) المسألة الثانية التي هي أهم مسائل القيم (ولن يسمح لنا المقام بذكر غيرها هنا) وهي : ما هي العلاقة بين القيم المطلقة وبين الحقيقة ؟ وهل هي من نوع الصفات العينية التي عاينها الأشياء — أي هل لها وجود مستقل عن العقل المدرك لها « كالكيفيات الأولى »^(١) التي يعتبرها

(١) الكيفية صفة تحمل على الشيء وتتميز بها الشيء من غيره ، وهي من مقولات أرسطو . وربما كان أرسطو أول من حاول تقسيم الكيفيات إلى أولى وثانية ولكنه لم يوضح الفرق بين النوعين تمام التوضيح .

وقد أطلق المدرسيون كلمة الكيفيات الأولى على الصفات الأساسية الأربعة التي هي الحار والبارد والرطب واليابس ، وظل الحال على ذلك حتى زمن ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ويوبل (١٦٢١ — ١٦٩١) ، فكان للأول فضل السبق في التكلام =

بعض الفلاسفة صفات عينية للموجودات مستقلة عن العقل المدرك لها ؟ أم هي من وضع العقل على نحو ما كانت تعتبر « الكيفيات الثانية » .
يميل بعض الفلاسفة الذين يعتبرون الكيفيات الثانية (كاللون والرائحة والطعم وما إلى ذلك) صفات عقلية إلى اعتبار القيم (أو الكيفيات الثالثة كما تسمى غالباً) صفات عقلية كذلك ؛ وعلى هذا الرأي تكون القيم مجرد معان قائمة بالعقل يصف بها بعض الناس الأشياء إذا كانت لها في نظرهم قيمة ولم فيها غرض أو غاية ، ولا توجد إلا حيث توجد هذه الغاية .
ولسكن طائفة أخرى تقول إنه مهما يكن الأمر فإن للقيم وجوداً مستقلاً عن العقل . وطائفة ثالثة يثبتون الوجود العيني للكيفيات الثانية ولا يجدون حرجاً من إثبات مثل هذا الوجود للقيم ؛ بل إن بعضهم يعتبرون

== عن الخصائص الهندسية والميكانيكية للأجسام ، ولثاني الفضل في التفرقة بين الخصائص التي توجد في الأجسام من حيث هي أجسام ، والكيفيات المحسوسة التي تتوقف في وجودها على الخصائص الأولى . وكانت نظرية بويل النواة التي ظهر عنها الرأي المعروف لجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) في الكيفيات الأولى والثانية والذي اقترن باسمه حتى يومنا هذا .

ويعرف « لوك » الكيفيات الأولى (التي يصح أن نسميها الصفات الثابتة للأجسام جميعها) بأنها الصفات التي لا يمكن فصلها عن فكرة الجسم من حيث هو جسم والتي تدركها حواسنا دائماً في كل جسم مادي له من الحجم ما يكفي لإدراكه : وهي عنده الصلابة والامتداد والشكل والمدد والحركة والسكون . ويطلق عليها اسم « الكيفيات الأصلية » . أما الكيفيات الثانية فيرى أنها لا وجود لها في الأجسام بالفعل ، وإنما هي نتيجة تأويل العقل لما يصل إليه من تعينات الكيفيات الأولى .
أوهي كما يسميها « لوك » : « قوى في الأجسام تثير فينا إحساسات مختلفة بواسطة كيفياتها الأولى » . وذلك مثل الألوان والأصوات والروائح والطعم وغير ذلك .
راجع كتابه Essay Concerning Human Understanding : الباب الثاني : الفصل الثامن : الفترة التاسعة والعاشر . راجع كذلك قاموس « لالاند » ج ٢ ص ٦٦٠ وقاموس « بولدين » ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ (المترجم)

القيم جوهر الأشياء ، ويقولون في شيء من الاعتداد بالرأى : إن العقل في حالة خاصة من حالاته ، أشبه بحالة الصوفيين (أى بنوع من الكشف أو الشهود) يرى الحقيقة والقيم شيئا واحدا !
هذا ، وقد تعددت الآراء واختلفت في أى القيم العليا المذكورة لها وجود عينى خارجى ؟ فيرى بعض الفلاسفة أن لاغضاضة في اعتبار الجمال صفة وجودية في المنظر الطبيعي الجميل مثلا ؛ وأن الخير صفة وجودية في فعل الخير ، أو في الخلق الحسن ؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يصفوا شيئا بأنه حق (أو صدق) سوى القضايا . ويرى غير هؤلاء أن القول بوجود « الحق » وجوداً عينياً أكثر قبولا إلى النفس وأيسر من القول بوجود الخير والجمال وهكذا .

ويمكننا القول بوجه عام ، بأن الاتجاه الفلسفى الحديث أميل إلى اعتبار القيم العليا عينية أكثر منها معانى نفسية أو عقلية ، ولو أن الفلاسفة مختلفون في تفسير معنى العينية التي توصف بها هذه القيم .

٥ . وصف المذاهب الفلسفية :

لعل هذه النظرة الإجمالية في المسائل الفلسفية ، وما ذكرناه من مناهج البحث التي حاول بها الفلاسفة معالجة حلولها ، كافية في أن توضح لنا أن مجرد تسمية أى فلسفة من الفلسفات « بمذهب كذا » — مثل مذهب الوحدة ، ومذهب المثال ، ومذهب الواقع ، وما إلى ذلك — ليس كافيا في وصف تلك الفلسفة وصفا دقيقا . بل إننا لو حاولنا وصف أى مذهب فلسفى وصفا حقيقيا شاملا لتطلب ذلك منا استخدام عدد كبير من

الكلمات الاصطلاحية للدلالة عليه ؛ ولكن الوصول إلى تصنيف جامع
للصور المختلفة التي يمكن أن تتركب منها المذاهب الفلسفية أمر غاية في
التعقيد . أضفت إلى هذا أن مواطن الخلاف بين المذاهب الفلسفية لم تعد
في الأزمنة الحديثة قاطعة حاسمة بين مذهب ومذهب ؛ وذلك لميل كل
فريق من الفلاسفة إلى تفهم فلسفة الآخرين ، وهو ميل يحملهم بالضرورة
إلى أن يدخلوا في حسابهم الفروق الحقيقية — إلى جانب النظر في الفروق
الظاهرة الواضحة — بين فلسفتهم وفلسفة غيرهم ، وبين المعاني المختلفة
للاصطلاحات الفلسفية وطرق استعمالها ، مما ينجم عنه عادة التوفيق بين
المذاهب المتضاربة . وهذه لا شك عقبة أخرى تعترض سبيل من يحاول
تصنيف المذاهب الفلسفية تصنيفاً جامعاً مانعاً . على أننا يجب ألا ننسى
أن لكل مذهب من المذاهب الفلسفية صبغة خاصة ، وأن لصاحبه
شخصية يمتاز بها عن عداه ، وهذا أيضاً مما يزيد في صعوبة تصنيف
المذاهب تصنيفاً دقيقاً . ولكننا على الرغم من كل هذا نعتقد أن أي
تصنيف للمذاهب خير من عدمه ، لا سيما في مختصر عام كمختصرنا . ولا
يخلو التصنيف البسيط من بعض الميزات ، على شريطة ألا يخطيء القارئ
فهم الغرض الذي يقصده المصنف . لهذا جعلنا غرضنا من هذه المقالة
ترتيب من وقع عليهم اختيارنا ممن تتمثل في تفكيرهم الفلسفة الحديثة
والمعاصرة في كل نواحيها : ووضعهم في فرق قليلة غير محصورة تمام الحصر ،
أملين أن النظرة العجلى السابقة التي أجمالنا فيها أمهات مسائل الفلاسفة ،
وما قال به كل فيلسوف من حل لها ، ستعين القارئ على وضع كل
فيلسوف في الموضع اللائق به من النظام الفلسفي العام لو أنه أراد ذلك .

الفصل الثالث

وصف عام

فلسفة المحرّبين والمعاصرين

(١) يبلغ العصر الفلسفي الذي نؤرخ له نحو نصف قرن ، ويبتدى على وجه التقريب من حيث انتهينا في الرسالة الأولى (راجع المقالة الأولى من هذا الكتاب)^(١) . وينتهي في أوائل سنة ١٩٣١ . ويرى الباحث في تاريخ الفلسفة في القرن التاسع عشر أن النزعة الفكرية الفلسفية كانت متجهة في العقود الوسطى منه نحو المذهبين المادى والتجريبي ، وأنه كان لهذه النزعة نتيجتان : الأولى ظهور نوع من الفلسفة يصح أن يوصف إلى حد ما بأنه مادي ، أو طاق^(٢) ، أو على أقل تقدير وضحى . الثانية أنها أحدثت رد فعل حرّك في النفوس الرغبة الشديدة إلى دراسة الفلسفة المثالية ، وهي الفلسفة التي كانت قد بلغت أوجها في الخمسين سنة التي أعقبت نشر كتاب الفيلسوف كنت المعروف « بنقد العقل المجرد » (Critique of Pure Reason) في سنة ١٧٨١ ، والتي أبقى عليها وأحيا تقاليدها بعض كبار الفلاسفة . لهذا كان أيسر على فلاسفة ذلك العصر

(١) يشير إلى كتاب Outline of Modern Knowledge

(٢) نسبة إلى الطاقة

أن يتناولوا الفلسفة المثالية بالبحث والدرس ، وأن يهذبوها ويزيدوا في فروعها المختلفة . وربما كان للفيلسوف ت . هـ جرين أكبر فضل في هذه الناحية ، فإنه كون آراءه الفلسفية على نحو ما فعل كنت ، ووضع نصب عينيه معارضة المذهب التجريبي والتشككي الذي قال به « دافيد هيوم » .

ومن بين الصور المتعددة التي ظهر فيها المذهب المثالي ، والتي كانت تدرّس لطلاب الفلسفة في ذلك العصر تظهر صورتان خاصتان يمكن تمييزهما بكل وضوح ؛ وهما « المذهب المثالي المطلق » (Absolute Idealism) الذي غلبت عليه فكرة وحدة الوجود ، ومذهب « الذرات الروحية » (Monadism) ، أو مذهب التعدد الروحي . (وهو من مذاهب المؤلّهة في بعض صورها لافي كلها) .

وقد كان من نتائج ذلك الاهتمام الجديد بالمذهب المثالي في ألمانيا ظهور حركة فلسفية كانت الغاية منها العودة من جديد إلى دراسة الفلسفة النقدية التجريدية التي كان كنت أول واضع لها . وابتدأت هذه الحركة بالصيحة المشهورة : « ارجعوا إلى كنت » . ولكن أصحاب هذه الحركة بالرغم من أنهم حاولوا أن يكونوا أكثر تطرفاً من كنت نفسه ، قد انتهى بهم الأمر تدريجياً إلى أن صارت فلسفتهم أكثر تعمقاً في الناحية الليتافيزيقية النظرية ، وأقل في الناحية النقدية ، مما كانت عليه فلسفة كنت ؛ وقد نشأ عن هذه الحركة التي لنا أن نسميها بالمذهب التجريدي الجديد ، أو المذهب « المثالي النقدي » ، ما لا يقل عن ثلاثة

مذاهب ، على رأس أولها هـ . كوهن ، وعلى رأس الثاني وندلباند ، وعلى رأس الثالث هُصِرْل . ويعرف المذهب الأولان عادة باسم « مذهب كنت الجديد » ، ويعرف الثالث بمذهب « الظواهر » . على أن المذهب المثالي لم تكن له قدم راسخة في إنجلترا وألمانيا وحدها ، بل كان راسخ القدم في فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة بأمريكا .

أما رد الفعل الذي أحدثه المذهب المادى في فرنسا فقد ظهر في صورة مذهب آخر غير المذهب المثالى ، ولو أنه شديد الاتصال به من الفاحية التاريخية : ذلك أن « هنرى برجسون » وضع في فرنسا فلسفة اعتبر فيها الحياة أصل كل شيء ، (لا المادة كما يقول الماديون ، ولا الفكر ، أو الوعى ، كما يقول المثاليون) . ونحن نطلق اسم « مذهب الحياة » على فلسفته لعدم وجود ما هو أحق بالإطلاق عليها من هذا الاسم . وقد كان من الطبيعي أن تلعب فكرة التطور دوراً هاماً في فلسفة مثل فلسفة برجسون . أما في ألمانيا وغيرها فقد أحدث المذهب المادى رد فعل أشبه بذلك الذى أحدثه في فرنسا وكان من نتائجه ظهور المذهب الحيوى بأضيق معانيه — أى المذهب القائل بأن الكائنات الحية لا يمكن فهمها من غير افتراض وجود مبدأ للحياة (أو مبدأ حيوى) تكون له الغلبة على جسم الكائن الحى . وقد تأثرت بمذهب الحياة أيضاً نظريات كثيرة في المعرفة (الإبستمولوجيا) ، وخاصة بعض نظريات المعرفة التى سبق ذكرها ، كالمذهب العملى ، ومذهب الذرائع ، والمذهب الأسطورى ، وكلها يعتبر العقائد مجرد وسيلة من وسائل الحياة ، وأن

قيمتها تقدر تبعاً لذلك لا من حيث إنها غاية في نفسها .
غير أننا نجد أن المذهب المثالي وإن أفلح في مناهضة المذهب المادى
— لأنه كان بمثابة رد فعل له — قد أثار رد فعل آخر ضد نفسه ؛ وذلك
لأن بعض المفكرين الذين لم يستسيغوا فكرة صدور العقل عن المادة
قد وجدوا من المستحيل عليهم أن يستسيغوا فكرة صدور المادة عن العقل ،
أو أن يعتبروا المادة بأى معنى من المعانى صورة خارجية للعقل .
ولا يزال يوجد في عصرنا اليوم حركة فكرية ، هى رد فعل ضد المذهب
المثالى ؛ إلا أن هذه الحركة تستند في الدفاع عن مبادئها إلى
نظريات المعرفة .

هذا ، ويعرف المذهب المضاد المذهب المثالى بمذهب الواقع ، وله
أنواع كثيرة تتفق جميعها في إثبات حقيقة شيء آخر غير العقل (أو الشعور)
وهذا الشيء مستقل في وجوده عن العقل . غير أن الواقعيين مختلفون ؛
فمنهم من وضع مذهباً فلسفياً كاملاً ومنهم من قصر همه على البحث في
بعض مسائل المعرفة . ولا بأس من اعتبار الواقعيين طبيعيين إلى حد
كبير ، وإن كان بعضهم قد يعترف بوجود إله ما فى العالم الطبيعى .

وربما كان من أخص صفات الفلسفة فى العصر الحاضر تأثرها بعلم
الطبيعة الحديث . فإن ميل العلماء الطبيعيين اليوم إلى القول بأن المادة
فى نهاية تحليلها مكونة من شحنات أو موجات كهربية قد حمل بعض
الفلاسفة ، لاسيما الواقعيين منهم على القول بأن الكون مجموعة من
الحوادث يتلو بعضها بعضاً فى تيار متغير غير منقطع ، أى أن الكون

ليس جوهرًا ولا مجموعة جواهر ثابتة دائمة . ولعل هذا المذهب ، الذي
يصح أن نطلق عليه اسم مذهب « تجدد الأعراض » أو مذهب « التغيير »
هو الذي أثر في نفوس بعض العلماء المعاصرين فعملهم على هجر المذهب
الطبيعي ، والانتصار للمذهب المثالي انتصاراً يدعو إلى الغرابة والدهشة .
ويظهر أن بعض هؤلاء العلماء لا يدري عن الموضوع أكثر من
أن يجيب إذا سئل عن المادة بأنها غير العقل وعن العقل بأنه غير المادة .
على أن العجز عن إدراك كنه المادة وتصورها على حقيقتها ليس
مبرراً كافياً للقول بأنها والعقل شيء واحد . وهذه صعوبة حاول بعض
الفلاسفة التغلب عليها بافتراض وجود « شيء » ثالث لا هو بالمادة
ولا بالعقل ولكنه أصل صدر عنه الإثنين جميعاً ؛ ويسمون هذا الشيء
بالمادة المحايدة ، وأحياناً يطلقون عليها اسم « مادة - عقل » لأنها على
ما يظهر لا هي بالعقل ولا بالمادة ، وإن تكن هي العلة في وجود الاثنين
كما قدمنا .

وهناك صفة أخرى من صفات الفلسفة الحديثة ، وهي غلبة نظرية
« التطور الفجائي » عليها . وتظهر هذه الصفة بوجه خاص في « فلسفة
الحياة » (كما يفهمها برجسون وأتباعه) ؛ وهي الفلسفة التي تعتبر الحياة
وتطورها الإبداعي كل شيء في الوجود تقريباً ؛ ولكن هذه الصفة
تصدق أيضاً على مذهب الواقع ، وذلك لأمرين : أحدهما أن أصحاب
مذهب الواقع يعتمدون في مذهبهم بقدر المستطاع على النظريات العلمية
العامة ، سواء أكانت هذه النظريات بيولوجية أم فيزيقية (طبيعية) ؛

ولاشك أن نظرية التطور إحدى النظريات الأساسية في علم البيولوجيا الحديث . الأمر الثاني أن مذهب الواقع متجه في سيره نحو المذهب الطبيعي ، ولذلك يستعين أصحابه بفكرة كفكرة « التطور الفجائي » في محاولتهم إدخال جميع الموجودات في عالم واحد .

(ب) وغرضنا الآن أن نرتب المختصرات التي كتبناها عن نحو أربعين فيلسوفاً من ممثلي فلسفة العصر الذي نؤرخ له ترتيباً يتفق مع ما قدمناه من الوصف الإجمالي لأهم الاتجاهات الحديثة في فلسفة الحديث والمعاصرين . وقد وضعنا هذه المذاهب تحت العناوين الآتية :

(١) المذهب المادى ، ومذهب الطاقة ، والمذهب الوضعى

(٢) المذهب المثالى المطلق

(٣) مذهب الذرات الروحية ، أو التعدد الروحى

(٤) مذهب التجريد الجديد (أو مذهب كنت الجديد ، ومذهب

الظواهر)

(٥) مذهب الحياة ؛ المذهب الحيوى ؛ المذهب العملى ؛ مذهب

الذرائع والمذهب الأسطورى

(٦) مذهب الواقع ؛ مذهب التطور الفجائى ؛ مذهب تجديد

الأعراض (أو مذهب التغير)

وقد شرحنا الدلالة العامة لهذه المصطلحات فيما تقدم

ولا يخفى ما فى تخير طائفة من الفلاسفة يمثلون النواحي المختلفة

للمذاهب الفلسفية من صعوبة على كاتب معاصر ، لاسيما إذا كانت الحيرة

نتيجة عن وفرة المعروض وجودته . زد على ذلك أن الأمم المختلفة لم تمثل
في هذا المختصر تمثيلا عادلا ، لذلك يجب ألا تقدر المنزلة الفلسفية لأي
أمة بعدد الفلاسفة الذين اخترعوا لتمثيلها . أما رائدنا في اختيار من اخترعناهم
فهو حرصنا على أن تمثل جميع الاتجاهات الفلسفية الهامة تمثيلا حقيقيا ،
وأن يكون الفلاسفة المذكورون بقدر المستطاع ممن يعنى أمرهم القراء
المتقنين تثقيفا عاما من الإنجليز والأمريكان . وربما زيد على هذين
الاعتبارين اعتبار ثالث وهو ظروف المؤلف الخاصة وما يحيط به من
اعتبارات

الفصل الرابع

المذهب المادى

مذهب الطائفة . المذهب الوضعى فى ألمانيا

(١) هيكل (١) (E. H. Haeckel) ١٨٣٤ - ١٩١٩

ربما كان هيكل أبعد أتباع مذهب دارون أثراً وعلى يديه تحولت نظرية « النشوء » إلى مذهب فلسفى كامل بعد أن كانت نظرية بيولوجية بحتة . ومن أشهر الآراء البيولوجية التى تقترن باسمه عادة (ولو أنه لم يكن أول واضع لها) رأيه فى نشأة أنواع الكائنات الحية ، ونظريته المعروفة بنظرية « الأعادة » . أما البحث فى نشأة الأنواع ، فهو دراسة تطور الكائنات الحية من نبات وحيوان ، ووضع شجرة أنساب لها ، بحيث يمثل أسفل أجزاء هذه الشجرة الأصول (الأجداد أو الأسلاف) التى نشأت عنها الأنواع ، وتمثل أغصانها ما تفرع عن هذه الأصول من السلائل وتمثل عساليجها آخر ما يولد من الذرارى . وقد وضع دارون فى

(١) أرنست هيكل عالم بيولوجى ألماني ، ولد فى بفسدام فى فبراير سنة ١٨٣٤ ودرس الطب والعلوم فى برلين وڤينا ، وفى سنة ١٨٦٢ عين أستاذاً لعلم التشريح المقارن ومديراً لمعهد الأبحاث الحيوانية فى « بينا » حيث أنشئ له كرسي فيها سنة ١٨٦٥ .
(الترجم)

كتابه « أصل الإنسان » صورة إجمالية لشجرة أنساب كهذه ؛ وحاول « هيكل » وأتباعه أن يضعوا أشجار أنساب مختلفة الأشكال ، وبنوا تقسيمهم لطوائف الكائنات الحية على الطريقة الآتية : - أولاً : قارنوا الحيوانات بعضها ببعض ثم وضعوا ما تشابه منها في الشكل أو النظام في مجموعة واحدة ، وذلك كالأميبا (Amoeba) والانفيوزور يا (Infusorians) اللتين تتشابهان في أن كلا منهما من الحيوانات ذوات الخلية الواحدة ؛ ثانياً : لاحظوا اختلاف الكائنات الحية في البساطة والتعقيد ، فعدوا البسيطة في التركيب منها أصولاً ، أو أقرب الأنواع إلى الأصول التي تنشأ عنها الفروع : فالأميبا مثلاً ليس لها أعضاء محدودة الشكل ، والآنفيوزور يا لها أنسجة ذات وظائف معينة ، لذلك اعتبروا الأميبا أصلاً والآنفيوزور يا فرعاً

أما النظرية الثانية - وهي نظرية « الإعادة » - فتتلخص في أن كل حيوان منذ أول نشأته في شكل جرثومة إلى أن يستوى خلقه ويكمل نموه ، يعيد في تاريخ حياته تاريخ أدوار التطور التي مر بها نوعه مبتدئاً بالأصل الأول ذي الخلية الواحدة . غير أنه من الطبيعي أن يكون تطور الجنين أسرع بكثير من تطور النوع ؛ فقد يقطع الجنين في بضعة أيام أو ساعات من مراحل النمو ما قطعها النوع في ملايين السنين

ويعتقد هيكل أن أبسط أنواع الحيوانات التي يمكننا أن ندرسها وهي المعروفة باسم « منيرا » (Monera) قد تبلورت من مادة غير حية ، كما يعتقد أن حركة العالم بأسره حركة تطور دائم يبتدىء من أبسط

الذرات وينتهي إلى أرقى أصناف الكائنات ، وأنه تطور يجرى وفق قوانين طبيعية ضرورية . فلا فرق عنده بين الكائنات الحية وغير الحية لأن بعض البلورات غير الحية مثلاً لها أشكال محدودة ، على حين أن بعض الكائنات الحية ليس لها نظام تركيبى معين . زد على ذلك أننا نجد عناصر المواد العضوية موجودة في المواد غير العضوية ؛ لا ، بل إن في مقدورنا أن نحضّر بعض المركبات العضوية بطرق صناعية . لذا يرى « هيكل » أن الكائنات جميعها — الحية منها وغير الحية — تتركب من أنواع واحدة من العناصر تحت تأثير قوى واحدة جاذبة ودافعة تعمل في ذراتها . أما ما نسميه بالروح ، فليس في نظره سوى عدد من التفاعلات الدقيقة في الجزء المتوسط من المجموع العصبي

وقد ظهر أبسط الكائنات الحية بطريق التولد التلقائي ، ومن هذه تطورت جميع الكائنات الحية الراقية بطريق الانتخاب الطبيعي . (وتختلف الأصول الأولى للحياة وما ينشأ عنها من الكائنات باختلاف نسب العناصر المادية التي تتألف منها) : فزيادة جزيء من الفحم أو الفسفور أو السكريت ، أو نقصه قد يكون وحده العامل في التفرقة بين عناصر الحياة الأولية التي تكونت عنها الأصول المختلفة لجميع أنواع الكائنات وما ينشأ عن هذه الأصول

ويتضح مما تقدم أن مذهب « هيكل » مذهب واحدى (Nonistic) لأنه يعتقد أن المادة (المؤلفة من الذرات) هي الحقيقة الغائية التي ليس وراءها حقيقة ، والأصل الذي ظهرت عنه جميع الكائنات ، الحية منها

وغير الحية ، والواعية منها وغير الواعية ، خاضعة كلها لقوانين ضرورية صارمة . ومذهبه الواحدى هذا أشبه فى الحقيقة بالمذهب المادى ، وإن كان ليس ماديا بالمعنى الصحيح ، فإنه قال بوجود أرواح حتى للذرات . ويلزم من هذا أن المادة عنده ليست شيئاً جامداً خالياً من الحياة كما يفهمها الماديون . ولهذا كان مذهبه من هذه الناحية أقرب إلى الروحية منه إلى المادية . ففلسفة « هيكل » واحدية إذن باعتبار الجوهر الواحد الذى يقول إنه أصل الكائنات جميعها ؛ ولكنها اثنيانية أيضاً باعتبار صفتى المادية والروحية اللتين يصف بهما ذلك الجوهر . أما القوة فيعتبرها « هيكل » صفة من صفات المادة

(٢) أستولد^(١) W. Ostwald ولد سنة ١٨٥٣

تسند فلسفة أستولد إلى فكرة الطاقة لأنه يعتبر الطاقة المبدأ الأول لكل شيء ؛ ويعنى « بالطاقة » القدرة على العمل ، أو ما ينتج عن العمل ، أو كل ما يمكن أن يحول إلى عمل — وعلى هذا فكل خواص المادة فى نظره عبارة عن أساليب مختلفة من الطاقة : فالكتلة مثلاً يمكن تفسيرها بالعمل والحركة ؛ والحجم يمكن تفسيره بأنه قابلية الانضغاط ؛ والشكل يمكن التعبير عنه بأنه مقدار ما فى المادة من مرونة

(١) غليوم أستولد : كيميائى ألمانى ولد فى ريفا سنة ١٨٥٣ ، وعين أستاذاً بجامعةها فى سنة ١٨٨٢ ، وانتقل بعد ذلك إلى ليبرج . وفى سنة ١٩٠٦ استقال من وظيفته الجامعية وأقام فى « سكسونى » ؛ ويعتبر أستولد بحق مؤسس المدرسة الكيميائية الطبيعية الحديثة . وكان لأبحاثه الكيميائية أثر كبير فى المواد المفرقة التى استخدمت فى الحرب العظمى . نال جائزة نوبل سنة ١٩٠٩ .

وهكذا . ومن هذا يظهر أن المادة عند « أستولد » ليست سوى مجموعة من الطاقات ؛ فليست الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية سوى أنواع من الطاقة ، وليست الخواص الكيميائية سوى ضروب من الطاقة تعمل في تحويل العناصر . أى أن الأجسام الطبيعية عبارة عن مجموعات منتظمة من الطاقات المختلفة ثابتة ثبوتاً نسبياً ، وعلى حالة قريبة من الاتزان ؛ والكائنات الحية أجسام ساكنة ذات طاقة كيميائية حرة تمكن الكائن من القيام بعملية البناء والهدم كما تمكنه من التغذية والتناسل . و « يمكن تشبيه الكائن الحي بآلة من الآلات التي تدار بالماء ؛ فالطاقة الحرة فيه بمثابة الماء الذي يجب أن يندفع في اتجاه واحد خلال عجلة الآلة لكي يمدّها بالمقدار الضروري من العمل ، والعناصر الكيميائية في الكائنات الحية بمثابة العجلة التي تتحرك حركة دائرية دائمة ، وهي توزع أثناء دورانها الطاقة المتولدة عن الماء الساقط إلى أجزاء الآلة ، كل على حدة »

وليست المادة وحدها في نظر « أستولد » على هذا النحو الذي وصفناه ؛ فإن الشعور كذلك نوع من الطاقة . فهو يتكلم عن الطاقة الروحية كما يتكلم عن الطاقة العصبية حيث يقول : « نحن نعلم أن العمل العقلي يستدعى بذل طاقة واستنفادها كما هو الحال في العمل الطبيعي » . على أنه يدفع عن نفسه ، في شيء من السخرية ، دعوى الذين يتهمون مذهبه بأنه مادي ، لأنه ينكر بتاتا النظرية القائلة بأن المادة هي المبدأ الأول أو الأصل الذي ظهر عنه كل شيء ، كما أنه ينكر دعوى من ينسب

إليه القول بأن الحياة والشعور أصلهما الطاقة الطبيعية البحتة . والحق أنه يرى أن ما نسميه بالطاقة الطبيعية يجب اعتباره أصاماً لجميع الأشياء — بما فيها الحياة والشعور — ولكنّه يرى أنه لا بد من افتراض فروض علمية جديدة تساعدنا على فهم نشأة الحياة والشعور . ويعني « أستولد » ذلك النوع من الفروض الذي يعتمد عليه أصحاب المذهب الحيوى وأصحاب « مذهب التطور الفجائى » ، وإن كان هو نفسه لا يسلم بالمذهب الأول على ما هو عليه

ومن الأمور التي يعتمد عليها « أستولد » في الانتصار لمذهبه القائل بأن الطاقة أصل المادة ، الاتجاه العام في علم الطبيعة الحديث الذي يعتبر الذرات المادية مجرد شحنات كهربائية

(٣) ماخ^(١) E. Mach ١٨٣٨ — ١٩١٦

يرى « ماخ » وجوب اشتراك العلوم الطبيعية والعلوم العقلية في مناهج البحث العلمى لأنه يعتقد أن موضوع الاثنين يرجع في النهاية إلى أصل واحد . وهو يقول — متبعاً في ذلك رأى « هيوم » — إن الظواهر الطبيعية والبسيكولوجية (النفسية) ترجع إلى عناصر مشتركة يظهر النوعان عنها ؛ وقد ظن أنه بقوله إن الأجسام الطبيعية ومظاهرها الحسية شيء

(١) مارنست ماخ من العلماء الطبيعيين والنفسيين في النمسا ، ولد بطوراس في مورافيا وتلقى علومه في فيينا . كان أستاذ الرياضه في جراتز من ١٨٦٤ — ١٨٦٧ ؛ وأستاذ الطبيعة في براغ من ١٨٦٧ — ١٨٩٥ ثم أستاذ الطبيعة في فيينا من ١٨٩٥ — ١٩٠١ ، ولما خ بعض الآراء في المسائل الدينية ممزوجة إلى حد كبير بأرائه الطبيعية والنفسية . (الترجم)

واحد، أنه أزال الفوارق الجوهرية المزعومة بين الظواهر الطبيعية والظواهر
النفسية ، ولم يبق في نظره إلا فرق واحد ، وهو العلاقة الخارجية بين كل
نوع منهما والظواهر الأخرى التي ترتبط به . فظاهرة اللون مثلا ظاهرة
طبيعية بالنسبة إلى الجسم الذي هو مصدر الإضاءة — أي هي طبيعية إذا
نظر إليها من ناحية علاقتها بظاهرة أخرى هي ظاهرة الضوء الصادر من
جسم مشع ؛ وهي في الوقت نفسه ظاهرة نفسية إذا نظر إليها من ناحية
علاقتها بإحساسنا بها : أما هي في نفسها فليست بطبيعية ولا نفسية . وهذه
النسبة المذكورة هي ما يسمى عادة بعلاقة اللزوم^(١) ، وتخضع هذه العلاقة
إما لقانون « الاختلاف في حالة واحدة »^(٢) أو قانون التغير النسبي^(٣) ،
وهما قانونان لوروعى تطبيقيهما بإتقان لوصلنا بواسطتهما إلى تقرير العلاقة
اللزومية بين أنواع الظواهر المختلفة التي تقع في حدود تجاربنا .

(١) وهو اصطلاح منطقي ، ومعناه توقف صفة من الصفات ، أو ظاهرة من
الظواهر على صفة أو عدة صفات أخرى ، أو على ظاهرة أو جملة من الظواهر الأخرى
بحيث يلزم من وجود الثانية وجود الأولى ويلزم من حدوث أي تغير في الثانية حدوث تغير
في الأولى كتوقف الظاهرة س على الظروف ا — ب — ج — د بحيث إذا أحدثنا
تغيراً في واحد من الظروف — وليكن ا — أصبحت الظروف الجديدة ا —
ب — ج — د حدث تغير في الظاهرة س فأصبحت س .

(٢) وهو قانون من قوانين الاستقراء : يقضى بأنه إذا اتحد حالتان — أو
مثالان — في جميع ظروفهما عدا ظرفاً واحداً وقعت ظاهرة ما في إحدهما ولم تقع في
الأخرى فذلك الظرف الموجود في الحالة التي وقعت فيها الظاهرة هو وحده المعلوم
أو العلة ، أو على الأقل جزء هام في علة الظاهرة .

(٣) قانون آخر من قوانين الاستقراء : يقضى بأن كل ظاهرة تتغير بأي شكل
من أشكال التغير كلما تغيرت ظاهرة أخرى ، فيبين الظاهرتين ارتباطاً عكسياً .

وأهم غرض للعلوم إنما هو اكتشاف مثل هذه العلاقات اللزومية بين الظواهر ، فإذا ما أخذت هذه الاكتشافات صبغة النظريات والآراء العلمية أفادت العلماء لأنها تكون بمثابة تلخيص لمشاهداتهم للحوادث الماضية وأداة تستخدم للتنبؤ عن الحوادث المستقبلية . وهذا في الحقيقة هو الذي يدفع بنا إلى تحصيل مثل هذه النظريات والآراء ؛ لأن شعورنا بالحاجة الماسة إلى معرفة الطبيعة وأسرارها هو الذي يسوقنا بالضرورة إلى كشف الاتجاه الدقيق لسير الحياة . أما أن العلوم أميل إلى أن تستخدم « السكم » عوضاً عن « الكيف » في شرح ظواهر الكون فذلك راجع إلى أن الشرح بواسطة السكم أسهل وأضبط وأخصر .

والحقيقة المطلقة — أو الأساس العام لكل شيء في نظر « ماخ » تقرب كل القرب مما يسمى في الفلسفة الحديثة بالمادة المتعادلة (Neutral Stuff) لأن فلسفته في جملتها تستند إلى افتراض مبدأ واحد — أو مادة واحدة — ولكنها ليست فلسفة مادية ، فإنه صريح كل الصراحة في رفضه الأخذ بالمذهب المادى ، لأن الأجسام في نظره ليست سوى صور رمزية للفكر تلخص ما نعرفه عن الأشياء بطريق خبراتنا الكثيرة المعقدة .

وقد اعتبر « ماخ » انتشار استخدام الأساليب الميكانيكية في شرح الظواهر الطبيعية راجعاً إلى أننا نعرف هذه الأساليب أكثر من غيرها من جهة ، ومن جهة أخرى إلى أننا أميل إلى استخدام طرق التشبيه والتمثيل إذا حاولنا شرح أى مسألة من المسائل أو بسطها . غير أن الأشياء — حتى التي يشرح منها شرحاً ميكانيكياً — لا ينبغي

أن تعتبر في نفسها ميكانيكية أو مادية بحتة
ورأى « ماخ » في مهمة العلوم ، وفي المعرفة الإنسانية بوجه عام ،
متأثر في جملته تأثراً كبيراً بنظرية التطور القائلة بضرورة وجود التوفيق
دائماً بين مطالب الإنسان ومطالب البيئة التي يعيش فيها لكي يضمن
لنفسه البقاء .

الفصل الخامس

المذهب المثالي المطور

في انكلترا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة

(٤) ت. ه. جرين^(١) T. H. Green ١٨٣٦ - ١٨٨٢

كان « جرين » في مقدمة الفلاسفة الإنكليز المثاليين الذين حملوا حملة صادقة على مذهب التجريبيين ونظرية التطور ؛ وكان من أكبر العوامل على ظهور فلسفته أمران : أولهما سلبي وهو مقتته الشديد لذلك النوع من الفلسفة الذي اعتاد الناس - إلى عهده - أن يعتبروه مثالا للفلسفة البريطانية ؛ وثانيهما إيجابي ، وهو أنه حذا حذو الفلاسفة المثاليين من الألمان أمثال كانت وهيجل مما دعا إلى وصف فلسفته أحيانا بالفلسفة « الكنتية الجديدة » أو « الهيجلية الجديدة » . أما كراهيته للمذهب التجريبي (كما فهمه هيوم وأتباعه) ، ولمذهب التطور (كما فهمه هربرت اسپنسر وغيره) ، فقد حركها في نفسه بادية الأمر نظره في بعض المسائل

(١) توماس هل جرين ، فيلسوف إنكليزي ولد سنة ١٨٣٦ في مدينة « بركن » في مقاطعة يوركشير . تعلم في جامعة أكسفورد وقضى حياته أستاذاً للفلسفة فيها . كان في زمنه أكبر أنصار المذهب المثالي في انكلترا وهو من أتباع كانت وهيجل في هذا المذهب .
(الترجم)

الأخلاقية : لأنه رأى أن اعتبار الإنسان مجرد كائن عملت على تكوينه قوى الطبيعة معناه : أولاً : العجز عن فهم الخلق الإنساني ؛ ثانياً : الخط من قيمة الحياة الإنسانية . لذلك يعتقد « جرير » أن نظرية كمنظريه التطور قد أخفقت كل الإخفاق في شرح شيء كالحاسة الخلقية أو الشعور بالتبعية الخلقية ؛ بل على العكس يرى أنها تتضمن إنكاراً للشخصية الإنسانية ولإمكان صدور الأفعال الراقية عن مثل هذه الشخصية سواء أ كانت هذه الأفعال عقلية أم خلقية . لذلك قصر « جرير » همه على شرح الطبيعة الإنسانية واستعداداتها الحقيقية وإظهار العلاقة بين الإنسان والظواهر الطبيعية البحتة التي تدخل في محيط تجاربه

ولكن لكي نفهم طبيعة الإنسان على وجه الحقيقة ، يلزمنا أولاً أن نفهم ماهية شعورنا ، لأن حقيقة شعورنا هي أولى الحقائق التي نؤمن بها ولا نشك في وجودها

أما شعورنا في نظر « جرير » ، فهو في جوهره شعور بالذات ؛ وليست العمليات العقلية — حتى البسيط منها كعملية الإدراك الحسي — مجرد تغير ، بل شعور بتغير من نوع ما . أي أن « الخبرة » الإنسانية بالإجمال ليست مجرد أحداث طبيعية أو عقلية ، بل هي إدراكات لهذه الأحداث . وما ندركه من الأشياء ليس حقائق مجردة ، بل حقائق معقولة يمكن تمييزها . بعبارة أخرى نحن ندرك وحدة مركبة من علاقات ونسب مختلفة ، لها وجود في حياتنا الشعورية التي تحتوى النفس الشاعرة (العقل) كما تحتوى العناصر التي تتألف منها الأشياء المدركة . وبفضل الشعور

تجتمع العناصر الآنفة الذكر في عملية عقلية واحدة نطلق عليها اسم عملية الإدراك الحسى

من هذا يتبين أن العلم يقتضى دائماً وجود عمل للعقل أو النفس الشاعرة ؛ وأن فعل العقل ليس بالأمر المتغير الذى لا يتبع نظاماً خاصاً ، ولا بالأمر العرضى . يؤيد ذلك أننا دائماً نستطيع التفرقة بين ما هو حق وما هو باطل ، وبين ما هو حقيقى وما هو وهمى ؛ كما يؤيده وجود العلوم غير أن هذا يقتضى فى نظر « جرين » أن « الحقيقة » التى نعلمها إنما هى حقيقة معقولة ، أو عالم معقول ، أو بعبارة أخرى عالم روحى ؛ وأن هذا العالم الروحى لا يمكن تفسيره إلا بالإضافة إلى « مبدأ روحى أو علة روحية تجعل وجود العلاقات والنسب الآنفة الذكر أمراً ممكناً ، غير متأثرة هى نفسها بواحدة من هذه العلاقات » . وذلك المبدأ أو تلك العلة عقل شاعر بذاته مطلق أزلى ، يدرك الكل الذى لا يدرك الإنسان إلاجزءاً أو أجزاء منه ؛ بعبارة أخرى هو الله . ويلزم من هذا أن للإنسان نصيباً من ذلك العقل الإلهى ، وأن هذا الجزء الإلهى فى الإنسان هو أصل الدين والأخلاق ، كما أن هذه المشاركة العقلية بين العبد وربّه هى الأساس الذى يبنى عليه الإنسان اعتقاده فى الخلود ، فإن العقل الذى من طبيعته أن يشعر بذاته لا يمكن أن يُفترض فناؤه ، بل لا بد له من مشاركة الأزلى (الله) فى أزليته

وفى الحياة الخلقية الإنسانية يقول « جرين » : إن النظر العقلى يكشف لنا عن بعض القوى التى فىنا ، وعمما يترتب على وجود كل قوة

من
لنفس
لأخا
والإ
من
الك
الإ
« الا
لا يك
أن
كل
كل
—
برادى
سنة
مات
شرف
ها ،
أقرب
القرن

من هذه القوى من التبعات ، وإن الإنسان باستخدامه لهذه القوى يحقق
لنفسه خيره الأعظم . أما تحقيق الخير الأعظم لأى فرد ، فمعناه تحقيق
لأخلاق ذلك الفرد ؛ أو تحقيق للمعاني السكالية التى فى نفسه العالية .
والإنسان فى تحقيقه للمعاني السكالية التى فى نفسه مجبور ، وجبره آت
من نفسه ؛ لأن الباعث الذى يدفع به إلى إظهار نفسه الحقيقية ، أو نفسه
السكاملة ، صادر عن هذه النفس ذاتها . وهذا الجبر الصادر عن النفس
الإنسانية ذاتها ، والذى به يحصل الإنسان خيره الحقيقى ، هو بعينه
« الاختيار » — أو الحرية الإنسانية . ولكن تحقيق كمال النفس الفردية
لا يكون إلا فى بيئة اجتماعية ؛ لأن الجماعة لا تكون بغير الأفراد ، كما
أن الأفراد لا يصلون إلى درجة كمالهم بدون نظام اجتماعى فيه يحتفظ
كل عضو بفرديته . ومن هذه الأعضاء تتألف وحدة اجتماعية يتمكن
كل فرد فيها من إظهار مواهبه واستعداداته الخاصة . وفى مثل هذا المجتمع
— لا فى غيره — يتحقق المثل الأعلى للخير الأخلاقى

برادلى^(١) F. H. Bradley ١٨٤٦ — ١٩٢٤

حاول برادلى أن يضع مذهباً فلسفياً مثالياً خالياً من ذلك النوع من

(١) فرانسيس هربرت برادلى ، فيلسوف انجليزى ولد فى جلاسبرى فى يناير
سنة ١٨٤٦ : درس فى جامعة أكسفورد وكان أستاذاً للفلسفة فيها ؛ وفى السنة التى
مات فيها — أى فى سنة ١٩٢٤ حصل على لقب Order of Merit وهو أعظم لقب
شرف يحصل عليه بريطانى . كان متأثراً بفلسفة هيغل على الرغم من أنه شديد النقد
لها ، وتمتاز فلسفته — كسائر فروع الفلسفة المثالية — بالغموض والتعقيد ، وبأنها
أقرب إلى فلسفة المتصوفين من أهل القرون الوسطى منها إلى فلسفة الحديثين من أهل
القرن العشرين . (المترجم)

التحزب العقلي الذي انصبغت به فلسفة «توماس جرين» المثالية ،
ولا يخفى أنه كان لهيجل من بين المحدثين فضل السبق إلى القول بأن
العالم «الحقيقي» هو العالم العقلي ، وفي هذا الرأي تبعه «جرين» . أما
«برادلي» فقد رأى أن هذه الفلسفة «المثالية» لا تقل في جمودها ولا
في تهافتها عن أكثر أنواع المذاهب المادية جموداً وتهافتاً . فتلك العظمة
الكونية الظاهرة للعيان تصبح على مذهب هؤلاء المثاليين ، مجرد «خيال
أو خداع لو أننا قلنا إنها تخفي وراءها معاني وهمية مجردة جافة ، أو طائفة
من المقولات المجردة التي لا حياة فيها» (تلك المقولات التي تعتبرها الفلسفة
الهجيلية المثالية حقائق أولية) ، كما لو قلنا إنها تخفي وراءها حركات في
الذرات المادية بعيدة عن متناول الحس (تلك الحركات الذرية التي يعتبرها
الماديون حقيقة أولية) .

ويظهر أن «برادلي» لم يرق في نظره البدء بالبحث في ماهية
«الشعور» كما فعل «جرين» ، لذلك جعل نقطة البدء في فلسفته شيئاً
آخر سماه بالتجربة المباشرة أو الإدراك المباشر ، ففي «الإدراك المباشر»
يشعر الإنسان شعوراً مباشراً بشيئين مجتمعين معاً في أمر واحد : فهو يشعر
أولاً بأنه يدرك شيئاً ما ، ويشعر في الوقت نفسه بوجود شيء مدرك . ثم
إن «التجربة» تظهر أول ما تظهر كأنها وحدة غير متمايزة الأجزاء ،
خالية من النسب والإضافات ، واسكنها (في الحقيقة) وحدة تتضمن عدداً
كبيراً من الأجزاء التي يكشفها النظر العقلي أو الحس : وذلك أننا
نحس أن «التجربة المباشرة» غير كاملة في ذاتها فنفكر فيها ؛ وتفكيرنا

فيها محاولة منا في تكميلها بإدخال مميزات بين أجزائها ، وإدخال معان مجردة إلى عناصرها وصفات ونسب وإضافات وغير ذلك . غير أن المقولات والمعاني التي يتخذها العقل أداة في أعماله لا تغنى ولا تجدى في فهم « الحقيقة » الكونية فهما فلسفيا ، ولو أن لها قيمتها في البحوث العلمية الخاصة ، إذ يتخذها العلماء أساساً لتفكيرهم .

هذا ، « وإن الطبيعة التي يدرسها من يتأمل ظواهرها ، والتي يدرسها الشعراء والمصورون طبيعة حقيقية من ناحية ما يدرك هؤلاء فيها من حساسية فياضة ووجدان ؛ وإنها لأكثر حقيقة (إذا صح هذا التعبير) من نواح كثيرة ، من تلك التي يبحث فيها العلماء الطبيعيون » : وذلك لأن المعاني التي يستخدمها العلماء الطبيعيون معان مجردة لا حقيقة لها ، كالزمان والمكان مثلا والنسبة والكيفية بنوعها — الكيفية الأولى والثانية — والحركة والتغير والعلّة والفعل والذات وما يسمونه « الشيء في ذاته » : هذه كلها معان لا تلبث — إذا تناولها العقل بالنقد والتحليل — أن يظهر تناقضها الذاتي ؛ ومن هنا صح تطبيقها على ظواهر الحقيقة لا على « الحقيقة » نفسها ، لأن الحقيقة منسجمة خالية من التناقض . على أن الظواهر الخارجية يجب ألا تعتبر مجرد أوهام باطلة — ولو أن برادلي أحيانا يصفها بهذا الوصف — بل يجب أن ننزلها منزلتها من الحقيقة .

ولكن كيف تدرك « الحقيقة » أو كيف يدرك « المطلق The absolute ؟ » أما « برادلي » فيرى أن الطريق المؤدية إلى إدراك « الحقيقة » — ولو أنه في نهايته إدراك جد قاصر — إنما هي « التجربة

المباشرة» ، أو على أقل تقدير هي التجربة المباشرة في درجة عالية من درجاتها ؛ فإن « المطلق » روح جامع لسكل الإدراكات الجزئية والسكل الظواهر ومكمل لهما . وإدراك « المطلق » — أو الإدراك المطلق — يظهر فيه . لكن في مستوى أرق وعلى شكل أعم وأكمل ، ذلك الشعور المباشر ، وهو الشعور بوحدة العقل المدرك ووجود الشيء المدرك . وهذا الشعور من خصائص الإدراك الإنساني المباشر .

ويلزم مما تقدم أن « الحقيقة » إدراك عقلي واحد ؛ وأن الإدراك يحتوى الحقيقة بتمامها ؛ « وأن لا وجود ولا حقيقة يخرجان عن دائرة ما سميته عادة « بالعالم النفسى » ؛ وأن الوجدان والفكر والإرادة (أو أية طائفة تدخل تحتها الظواهر النفسية) هي وحدها مادة الوجود ؛ وأن ليس وراء هذه المادة مادة بالفعل أو بالقوة . أما الروح فهي وحدة الكثرة تلك الوحدة التي ينمحي فيها كل ظواهر التعدد . ويلزم منه أيضا أنه لا توجد حقيقة — بل لا يمكن أن توجد حقيقة — وراء الروح ؛ وأنه بقدر ما يكون في الشيء من الروحية يكون فيه من الحقيقة .

ويظهر أن « برادلى » يخالف « جرير » في عقيدته في الله . لأن « جرير » يعتقد أن لله ذاتا مشخّصة ، في حين يعد برادلى « المطلق » (الله) منزها عن كل معنى من معانى الشخصية التي هي معانى التشبيه . زد على ذلك أن « برادلى » ينكر نسبة الخير لله ، كما ينكر الرأى (الذى اعتنقه كل من كُنت وجرير) القائل بأن الخلود الذاتى أو الشخصى أمر تفترضه الحياة الخلقية افتراضا ، أو أنه معنى مستلزم من مفهومها . ولكن

برادلى وجرين يتفقان فى أنهما ينكران تطور « المطلق » . فإن المطلق لا تاريخ له فى ذاته وإن كان يجمع فى نفسه من التواريخ ما لا يدخل تحت حصر .

(٦) بوزنكيت^(١) B. Bosanquet ١٨٤٨ — ١٩٢٣

لعل أعظم شيء اشتهر به « بوزنكيت » فى تاريخ الفلسفة المثالية البريطانية هو انتصاره للنظرية الفلسفية القائلة بأن الفكر هو البرزخ الذى يوصل الإنسان إلى « الحقيقة » المطلقة ؛ فإن « برادلى » قد بالغ فى تصوير ما يقع فيه الفكر من التناقض عند ما ياجأ إلى طريقة التجريد ، أما « بوزنكيت » فيقول إن من الخطأ فى تصور الماهية الحقيقية للفكر أن نعتقد أن معناه تحصيل المعانى السكائية المجردة فى الذهن ؛ وهو خطأ أدى بطبيعته إلى فهم الوجود فهماً خاطئاً ناقصاً . فالفكر فى أرقى مظاهره وحدة منتظمة ، وليس معنى مجرداً . وبالفكر نستعين على إدراك معنى النظام فى الكون ؛ فهو يحاول إدراك « الحقيقة » لا عن طريق السكيات المجردة ، أى المثل العقلية الصرفة التى تعبر عن المعانى المشتركة بين الأشياء من غير نظر إلى ما بينها من العلاقات ؛ بل يتصور « الحقيقة » على أنها كل ، أو مجموع أو نظام مترابط الأجزاء . بعبارة أخرى إن السكالى

(١) برنارد بوزنكيت : فيلسوف إنكليزى : ولد فى نورثمبرلند وتعلم فى أكسفورد وتلمذ لبعض أئمة زمنه فى الفلسفة أمثال هـ جرين : كان متأثراً بفلسفة هيغل شأن كثير من مواطنيه الذين انتصروا للفلسفة المثالية ، ولكنه كان كثير التأثير أيضاً بالفيلسوف لظزه . كتب بوزنكيت فى فروع كثيرة من الفلسفة لا سيما المنطق والأخلاق وما بعد الطبيعة (الترجم)

الذى به يحاول العقل إدراك « الحقيقة » إنما هو كلى ذاتى^(١) ، لا كلى
معنوى . والكلى الذاتى عند « بوزنكيت » هو فكرة الكل أو النظام
لا المعنى الكلى

فإذا فهمنا الفكر على هذا النحو ألقيناه مرشداً حكيماً ، لا يوقعنا فى
التناقض والمظاهر الوهمية الكاذبة ، بل يهديننا إلى صميم « الحقيقة »
ذاتها . لا ، بل الفكر هو تجلى الحقيقة لذاتها ؛ فإن الفكر والحقيقة
متضايغان مرتبطان ، بمعنى أن الفكر دائماً إثبات شيء ما للحقيقة ،
والحقيقة دائماً هى « الكل » الذى يسعى الفكر إلى إثبات وجوده

أما التقابل الذى يراه الناس عادة بين الفكر — أو المنطق — وبين
الوجدان ، فيعده « بوزنكيت » من أكبر ضروب السخف ومن الآراء
الواهية السطحية ؛ فإن ما نشعر به من وجدان عميق أو من جاذبية حادة
إزاء فكرة من الأفكار الجليلة ، أو شخصية من شخصيات رواية عظيمة
أو نحو عمل فنى بديع ، إنما يقاس بما لهذه الأشياء من حظ من الحقيقة ،
وما لأصولها ومصادرها من اتصال بالحقيقة . ثم إن هذا يقاس بعد ذلك
بما يتجلى فى هذه الأشياء من ترابط منطقي ، أى بما فيها من انسجام مع
الكل الذى هى جزء منه

هذا ، و « لـالكل » أو « الكلى الذاتى » أثر فى تجاربنا جميعها ،

(١) يريد بالكلى الذاتى تصور العقل لكل أو نظام مركب من أجزاء ولا يقصد
به كليا من الكليات — أى معنى عاما مشتركا بين أفراد حقيقة واحدة أو حقائق
مختلفة ، و « الكلى الذاتى » اصطلاح يظهر أن بوزنكيت أول واضع له وفيه من
الغموض ما فيه ، والأولى ترجمته إلى « فكرة الكل » (المترجم)

ولسكنه أثر ضمنى لانشعر به . ويظهر ذلك الأثر بالفعل ونشعر به في تفكيرنا المنطقي ؛ لأن « الكل » هو المستوى الذى نقيس به التفكير ، أعنى التفكير الذى يحركه في نفوسنا ميلنا الطبيعى إلى البحث وراء الصواب والحق . وفي التفكير المنطقي تظهر فكرة النظام التى هى روح « الكل » أو روح « الكلى الذاتى » : أو بعبارة أخرى ، روح « الفردية » التى هى المحور الذى يدور حوله تفكيرنا . ومن خصائص الأحوال النفسية الراقية عند الإنسان أن فيها ينكشف انسجام الأشياء ووحدها ؛ أى التركيب النظامى للعالم ، أعنى « المطلق » . وفي هذه الأحوال « نسمع دقات قلب المطلق » كما يقول « بوزنكيت » ، أى نكون على اتصال مباشر به ، إذ المطلق هو غاية اجتماع العقل والطبيعة

والعقل والطبيعة متضايقان ؛ إذ الطبيعة هى ما يتجلى للعقل ، والعقل هو ما يدرك الطبيعة أو يفسرها . ويختتم بوزنكيت فلسفته بقوله : فى « المطلق » تجتمع كل خبراتنا الجزئية وتتحول صورها ، وتتألف منها وحدة تامة كاملة ، أو كلٌّ كامل منتظم ، لكل شىء فيه صلة محكمة بغيره من الأشياء ؛ وإذا كان « الكل » على ما وصفنا من الإحكام والكمال فلنا أن نصف « المطلق » بأنه غائى وأنه يتحرك من تلقاء نفسه نحو تحقيق غايته

(٧) فيسكونت هولدين^(١) Viscount Holdane ١٨٥٧ — ١٩٢٨

كان فى صميم فلسفته من أتباع مذهب « هيغل » أو من أتباع

(١) ريتشارد بيردون هولدين : فيلسوف وقانونى بريطانى ولد فى اسكتلندة

« المذهب المثالي المطلق » ، ولو أنه كان غير راض عن كلمة « اديالزم » (المذهب المثالي) . وقد كان يعتقد أن النقطة التي يمكن لأي فيلسوف أن يبدأ منها دون غيرها هي « الخبرة » (experience) ، وأن الخبرة تكشف لنا دائماً عن نظام معقول ، أو نظام مثالي أوسع في محيطه وأعم في صفاته من « الخبرة » ذاتها ، ولكنه نظام باطن في « الخبرة » وأساس لها . ويطلق « هولدين » على ذلك النظام المثالي المعروف اسم المعرفة ، وليس المراد « بالمعرفة » هنا الأشياء التي هي موضوع خبرتنا ؛ ولا مجرد عملية يستعين العقل بها على إيجاد علاقات ونسب خارجية بين ذوات الموجودات وبين نفسه ؛ فإن صفات الأشياء ليست بحال من الأحوال غنية عن المعرفة ولا عن خصائصها وفعالها ؛ إذ الوجود يتضمن دائماً أن الشيء الموجود له « معنى » أو « مفهوم » أو أنه معلوم بوجه ما . وما لا معنى له لا وجود له .

نعم للمعرفة درجات مختلفة وأطوار مختلفة . واختلاف درجاتها إنما هو بمقدار ما فيها من التجريد الذي نصل إليه عن طريق مشاهدة الجزئيات والتفاصيل في الحقائق الخارجية . وكل نوع ، أو كل درجة من درجات المعرفة ، له نوع أو درجة من درجات الحقيقة يقع عليه ^(١) . فعلوم الطبيعة

وتعلم في أكاديمية أدنبرة وفي جامعي أدنبرة وجنتنجن حيث درس الفلسفة على لوطزه . حل عدة مناصب خطيرة في الحكومة البريطانية في أثناء الحرب العظمى وكانت له خدمات جليلة بها . وقد قصر همه بعد الحرب على الاشتغال بالفلسفة والتأليف فيها ، وفلسفته هيجلية في نزعتها العامة ولكنها مصبوغة بالروح العلية الحديثة (للترجم) (١) يشبه بعض الشيء تقسيم أرسطو للمعلوم على أساس مجرد موضوعاتها أو

والحياة والنفس مثلاً تمثل درجات متفاوتة من التجريد؛ فهي لهذا تمثل درجات مختلفة من المعرفة ومن الحقيقة. ولكن درجات كل من المعرفة والحقيقة لها منزاتها من النظام العام للمعرفة الإنسانية، وفيه تظهر العلاقات المتبادلة بين الاثنين. فالحقيقة هي «الكل» أو المجموع، ولكن تصور العقول الجزئية الإنسانية، وما جرت به عاداتها من التفرقة بين العقل المدرك والأمور (أى بين الذات والموضوع) من العقبات التي تحول دون إدراك ذلك «الكل» في كليته على الوجه الأكمل.

فالعالم الكامل إذن هو العلم التام الشامل: الذى تمامه وشموله من ذاته: والذى فيه تنمحي كل تفرقة بين العالم والمعلوم — الذات المدركة والموضوع المدرك — وبين الكلى والجزئى. وهو بهذا المعنى يخالف «الخبرة» لأن «الخبرة» تجمع في نفسها كل العناصر المختلفة التي يمكن تمييزها فيها؛ أى أن العلم ليس مجرد إدراك العلاقات والنسب بين الأشياء بل هو شئ أكثر من ذلك؛ هو هيئة منتظمة من المعرفة الذاتية لا تفرقة فيها بين العالم والمعلوم.

وقد ظهر إذن أن فرض وجود هذا النوع «من المعرفة المثالية» أو المثل الأعلى للمعرفة التي تتخلل كل «خبرة» من خبراتنا، أساس لا بد منه في فهمنا للعالم؛ لأن المعرفة لو فسرت بهذا المعنى الواسع،

= عدم تجردها من المادة، فالعلم الألهى علم تام التجريد، وعلم الرياضة نصف تجريدى،
وعلم الطبيعة ليس مجرداً أصلاً؛ وذلك لأن موضوع الأول ليس في مادة مطلقاً،
وموضوع الثانى في مادة في الواقع ومتجرد عن المادة في العقل، وموضوع الثالث
غير متجرد عن المادة أصلاً (المترجم)

ولو روعى فيها ذلك الكمالى المثالى السابق الذكر ، لما كانت أساساً
للحقيقة فحسب ، بل لما غيرت « الحقيقة » فى شىء . بعبارة أخرى ،
ليست المعرفة حادثة من الحوادث ، إلى جانب الحوادث الأخرى التى
تقع فى الكون ، بل هى الكون بأسره الذى يحتوى جميع ما يقع
من الحوادث .

(٨) رافيسون مولياره^(١) Ravaisson Mollien ١٨١٣ — ١٩٠٠

كان رافيسون موليان من الذين أخذوا بنصيب وافر فى إحياء الفلسفة
المستندة إلى فكرة « الفاعلية الروحية » وإصلاحها : تلك الفلسفة التى
وضع أسسها فى فرنسا « مين دى بيران » (١٧٦٦ — ١٨٢٤) ؛ والتى
كانت قد ركبت ريجها زمناً طويلاً من بعده لإغفال الفلاسفة أمرها .
ويعتقد رافيسون أن « الطبيعة » فى جوهرها روح أو فاعلية روحية ،
وأن الفاعلية الروحية ليست مجرد وظيفة أو صفة من صفات الكون ؛
بل هى الكون بعينه . فإن « أن تفعل » معناه « أن تكون » . « وأن
تكون » معناه « أن تفعل » . والفكر هو هذا الفعل الروحى ، لأن الإرادة
(التي بها يتبين الفعل واتجاهه) . والفكر (الذى به تتمثل صورة الفعل)
شىء واحد أو عمل واحد . وغاية الفكر التأليف بين العناصر المختلفة التى

(١) فيلسوف وعالم آثار فرنسى ، ولد فى نامور فى أكتوبر سنة ١٨١٣ ،
وتعلم فى جامعة ميونخ . وكان أستاذاً للفلسفة فى جامعة رن ومن المناصب التى
شغلها أيضاً منصب مدير قسم الآثار فى متحف اللوفر . (المترجم)

تدخل إلى (خبرائنا) ، وإبراز هذه (الخبرات) في صورة ملتزمة الأجزاء لها وحدة معنوية خاصة . والمعرفة في أخص صفاتها كالفن ، لأن المعرفة وليدة الفكر وقدرته على الإبداع والتركيب . فالعلم بحقيقة الكون إذن ، من غير استعانة (بمقولات روحية) ، ضرب من المحال . ألا ترى إلى علوم الحياة قد اضطرت - كما بين ذلك برنارد (١٨١٣ - ١٨٧٨) إلى دراسة كل عضو من أعضاء الكائن الحي على أنه جزء منه ، ولم تدرس هذه الأعضاء في عزلة عن مجموع الكائن . ما معنى هذا إلا أن هذه العلوم قد افترضت مبدأ الغائية ولم تستطع أن تمضي في دراستها بدونها ؟ وليست العلوم الطبيعية بأبعد حظاً من العلوم الحيوية ، فإنها لا تختلف عنها اختلافاً جوهرياً من هذه الناحية ؛ وذلك لأن ظواهر الكائنات غير العضوية ، أو غير الحسية ، تختلف في الدرجة ، (أى في القوة والضعف ، أو الزيادة والنقص) لا في النوع ، عن ظواهر الكائنات الحية أو الشاعرة ، فالسكون مثلاً الذي هو صفة من أخص صفات الكائن غير الحي إنما هو ضرب من ضروب العادة ، أو قل هو فساد وضعف في الإرادة ، ولا يقدر على تكوين العادة سوى الأرواح .

ويختم رافيسون موليان فلسفته بقوله إن الجزء المادى من الكون نتاج ثانوى لله ، تولد عن انتشار الروح الإلهية وانقسامها ، فإن الله هو المبدأ الأول للنظام والانسجام في الكون ؛ وقد خاق الله المادة بكل ما فيها من صفات النقص لكي تنبعث الحياة فيها انبعثاً جديداً تستعيد به كمالها ، فإن الكمال دائماً يفترض وجود النقص

(٩) رينوفيه (١) C. Renovier ١٨١٥ - ١٩٠٣

حاول رينوفيه أن يمزج المذهب الفلسفي المعروف بمذهب الواقع أو (المذهب الوضعي) بالمذهب الآخر المعروف (بالمذهب المثالي) مستعيناً في ذلك المزج بمذهب ثالث هو (مذهب الظواهر) ذلك أنه كان يرى أن ظواهر الأشياء وحدها هي كل ما لنا سبيل إلى معرفته ، أو إدراكه إدراكاً مباشراً ، وأنها وحدها المادة التي نعتمد عليها في هذه المعرفة . وللظواهر عند رينوفيه ناحيتان : الناحية الأولى من حيث ما تظهر لنا ، والثانية من حيث ما هي مظاهر لشيء من الأشياء . فمن الخطأ أن نعزل إحدى هاتين الناحيتين عن الأخرى ، أو نعتبرها مستقلة عنها ؛ أي من الخطأ أن نعتبر ظواهر الأشياء كما لو كانت حقائق مستقلة في ذاتها ، غنية عن العقل المدرك لها ، أي غنية عن ظهورها أمام شخص ما يدركها في « خبرة » من خبراته . هذا بالفعل ما قال به الواقعيون ، وعليه انبنى فساد مذهبهم . ومن الخطأ أيضاً أن نعتبر الظواهر كما لو كانت هي و (الخبرة) شيئاً واحداً ، من غير ما إشارة إلى موضوع من الموضوعات (شيء من الأشياء) كأنها ليست مظاهر للأشياء . وهذا بالفعل ما قال به المثاليون وعليه انبنى فساد مذهبهم . فيجدد بنا إذن أن نعتبر الظواهر في وحدتها

(١) تشارلس برنارد رينو فييه : فيلسوف فرنسي : بنى فلسفته على أساسين : كراهيته لكل شيء يقال إنه لا يمكن معرفته ، واعتماده على ما يصل إليه بأدراكه الشخصي ، ولذلك يسلم بمذهب كنت في جلته وينكر ما يسمى « بالشيء في ذاته » كما ينكر الروح و « المطلق » وما أشبه ذلك : وهو يفضل الألحاد على أي مذهب من مذاهب المؤلفة بصور الله كما تصوره الأديان . (المترجم)

أو في جملة ما — أي يجدر بنا أن ننظر إلى ناحيتها على السواء . ولو فهمنا الظواهر بهذا المعنى لحق لنا القول بأن منها يتكون « الوجود » ولأصبحنا ولا حاجة بنا إلى الكلام عن الشيء في نفسه (أو الشيء بالذات الذي يقول به الواقعيون) ، أو الكلام عن أي ذات مدركة مستقلة في وجودها عن الخبرات التي تربطها بالظواهر (كما يقول المثاليون أو العقليون)

ومثل هذا الرأي لا يجعل الوجود مجرد أمر عقلي بحت ، وليد العقل الإنساني المتغير المتقلب ؛ لأن الظواهر الكونية لها قوانينها — أو بعبارة أخرى إن بينها من الروابط والنسب المطردة المتبادلة ما يكسبها صفتي الدوام والنظام . فالظواهر كلها مثلا تخضع لبعض المبادئ الأولى ، أو المقولات التي هي النسبة والعدد والأي (المكان) والتمت (الزمان) والكيف والصيرورة والعلية والغائية والفردية . ثم هي تخضع من ناحية أخرى للقوانين الخاصة المختلفة الأنواع التي تستنبطها العلوم الجزئية

غير أن (رينوفييه) قال بعد ذلك في بعض كتبه المتأخرة بوجود أشياء أرقى في درجة تركيبها ، وأبعد عن أن تكون مجرد مجموعات منتظمة من الظواهر . وهذه هي الكائنات الروحية التي أطلق عليها لينفتر اسم الذرات الروحية : وهالك نص عبارة رينوفييه : « إذا ظهرت الحرية في كائن ما . فإن هذا الكائن ، مهما تعددت صلته وعلاقاته بالكائنات الأخرى ، يصل بفضل ما فيه من هذه الحرية إلى درجة راقية من الوجود الذاتي ، أو الوجود الفردي ، لا يضارعه فيها مضارع . فما كان قبل يمكن تمييزه من غيره فحسب ، يصبح الآن منفصلا مستقلا ؛ وما كان

بالأمس نفساً فحسب ، يصبح اليوم نفساً قائمة بذاتها ، أو ذاتاً ،
أو جوهرأ ... أو فرداً . وأرقى الأنواع في الفردية هو الإنسان أو الشخصية
الإنسانية . زد على ذلك أننا يجب ألا نقصر همنا على العلم بالمقولات
والقوانين الجزئية إن كانت غابتنا أن ندرك الوجود في جملة على وجه
أتم وأشمل . فيجب مثلاً أن نفترض صدق قانون التناقض ، كما يجب
أن نحتمى في مبدأ حرية الاعتقاد تحت تأثير ما توحى به إلى كل منا
شخصيته الكاملة . وقد كان « رينوفيه » يعتقد أن بين الإنسان والعالم
نوعاً من الانسجام بفضل يخفض العالم لمطالب الإنسان الخلقية

ويظهر مما تقدم أنه ربما كان الأولي بنا أن نعد فلسفة « رينوفيه »
ضرباً من ضروب الفلسفة المثالية النقدية أو المذهب الروحي الذرى
(الذى هو مذهب ليينتز) ، من أن ندخلها تحت المذهب (المثالى المطاق)
وإلا فصله — فى مختصر كهذا — عن أمثاله من الفلاسفة الفرنسيين
المثاليين الذين ذكرناهم — أعنى « رافيسون » و « لاشلييه »

(١٠) لاشلييه J. Lachelier ١٨٣٢ — ١٩١٨

بدأ لاشلييه الفلسفة النقدية التى وضع أساسها الفيلسوف كنت ،

(١) جول لاشلييه فيلسوف فرنسى ولد ومات فى (فونتبلو) . من أكبر
المحدثين آراً فى الفلسفة الفرنسية وأستاذ كبار الفلاسفة الفرنسيين فى العصر الحاضر .
وأم نقطة فى مذهبه بحث الشروط التى يجب توفرها لى تحكم بوجود العالم كما يظهر
لنا فى إدراكنا له : أى باعتباره موضوعاً لتفكيرنا . ألف فى المنطق وعلم النفس وفلسفة
ما بعد الطبيعة وله فى كل منها آراء خاصة (المترجم)

وهي الفلسفة القائلة بأن العلماء يدركون العالم المحسوس ويفسرون ما فيه من النظام أو الترتيب بواسطة طائفة من الصور العقلية والمقولات ، وأن القوانين الطبيعية التي يستنبطها هؤلاء العلماء إنما كانت صادقة على الإطلاق لأنها يجب أن تتفق وطبيعة العقل الإنساني الذي هي وليدته . ولكن بينما يفترض « كنت » أن العقل الإنساني يستخدم بعض صورته ومقولاته ويطبّقها على ما يصل إليه من الإحساسات التي هي مادة غُفْلٍ مستقلة في وجودها عنه ، يقول لاشلييه إن العقل يخلق العالم المحسوس برمته خلقاً ، وإنه لا وجود لحقائق مستقلة عنه يلزمه أن يتكيف بها . بعبارة أخرى يعتقد لاشلييه أن العقل وحده هو الحقيقة التي ليس وراءها حقيقة ، نعم ، إن العالم المحسوس قد يبدو لكل إنسان أنه غنى عن الحس ، ولكن يرجع السر في ذلك إلى أن العالم المحسوس موضوع لإدراك عقل شاعر ، وذلك العقل هو الذي يعطى العالم صفة العينية أو الشبثية عند ما يتخذه موضوعاً لتفكيره : وهذا يمنع من اعتبار العالم مجرد حالات نفسية ناشئة عن الإدراك الحسي . فالعقل إذن هو الذي يعطى الظواهر الطبيعية والعقلية عينيتها وذاتيتها ، لأنه يؤلف منها حقائق منتظمة ، فيحول بذلك دون عدها أموراً نفسية اعتبارية . أما الفكر فيدلُّك على حقيقته وجود عالم لا يفسره سوى الفكر نفسه . ويدل وجود الحساسية على أن الفكر شيء أكثر من مجرد العقل ، فإن الفكر — بواسطة فعل الإرادة — يعطى بعض الأشياء كالزمان والمسكان صفات الأمور المحسوسة . والحقيقة أن لاشلييه يفرق بين ثلاث درجات من الفكر : الفكر في درجته الأولى ؛

وهو عقلي محض ينظر إلى الأشياء كما لو كانت خاضعة لقوانين عليّة آليّة ؛ والفكر في درجته الثانية يتخذ الجزئيات موضوعاً له ويبرزها إلى عالم الحس في مكان ما ويفترض وجودها ، مستعيناً في ذلك بفعل الإرادة . وهذه الجزئيات صور (لتلك المعاني العقلية المجردة) تحدّها وتضبطها فكرة الغاية . والفكر في درجته الثالثة حر طليق مدرك لذاته . ويذكر لاشلييه بعد ذلك صلة مراحل الفكر الثلاثة بالعلم والفن والدين ؛ فالعلم يمثّل الفكر في درجته الأولى ، والفن يمثله في درجته الثانية ، والدين يمثله في درجته الثالثة . غير أن لاشلييه لم يقصد بذلك أن درجات الفكر تمثل ثلاث مراحل متعاقبة تعاقباً زمانياً ، بل قصد أنها ثلاث نواح أو ثلاثة وجوه للفكر واقعة في زمان واحد : أي أن الوجود « ليس في بادئ أمره ضرورة عمياء ، ثم يصبح إرادة خاضعة على الدوام لهذه الضرورة ، ثم يصير في نهاية أمره حراً طليقاً يشعر بالضرورة بوجود الحالتين السابقتين : ولكنه حريّة كله من حيث إنه موجد لنفسه ، وإرادة كله من حيث إنه شيء حقيقي ذاتي ، وضرورة كله من حيث إنه عقل مدرك لنفسه »

والله في نظر لاشلييه هو العقل الكلي : والدين هو شعور الفرد

بافتقاره إلى ذلك العقل الكلي

(١١) كروس^(١) B. Croce ولد سنة ١٨٦٦

يعد « كروس » في طليعة الفلاسفة المثاليين في إيطاليا في العصر

(١) بندتو كروس : فيلسوف إيطالي جمع إلى العلم بالفلسفة العلم بالأدب والتاريخ =

الحاضر ، وتتفرع فلسفته في « الروح » عن نظرية أوغسطين وديكارت ، وهي النظرية القائلة بأن أكثر ما نوقن بوجوده من الأشياء حالاتنا العقلية الشعورية . وهو يعتقد — كما يعتقد المثاليون من الألمان — أنه لا حاجة بنا إلى افتراض حقيقة أخرى غير هذه الحالات . ولكن الحقيقة الروحية في نظره تحتوى أكثر مما يقع في محيط العقول الجزئية من التجارب ؛ لأنه يفترض — كما يفترض أصحاب المذهب المثالي المطلق — وجود عقل كلى إلى جانب العقول الجزئية ، أو روح عامة منبثة في العقول الجزئية جميعها . وهذه الروح ، بالرغم من تظلمها سائر العقول الجزئية ، ليست بهذه العقول كلها مجتمعة .

ولكن بينما يعتقد هيغل وأتباعه أن أسلوبهم الفلسفي الخاص (المعروف بالأسلوب الحوارى Dialectic) الذى به يبحثون في طبيعة العقل الكلى ، أسلوب منطقي بحت ليست له صبغة زمانية : (ولو أن هيغل نفسه لم يمكنه أن يتجاشى التعبير بما يفيد أن تفكير العقل الكلى أيضاً واقع في الزمان) ، يقرر « كروس » في شيء من الجزم والوضوح ، أن الروح العالمية حركة واقعة في الزمان ، وأن الوجود والتاريخ الكونى شيء واحد (كما أن الوجود هو لفلسفة أيضاً ، إذ لا بد من اعتبارها كذلك في مذهب فلسفى كهذا) . أما أن الوجود هو التاريخ الكونى فلأنه دائم التغيير ، دائم الفعل ، دائم الخلق . ولهذا يشبه « كروس » من هذه الناحية

== والفنون الجميلة ، وقد جاءت فلسفته صورة جامعة لهذه العناصر كلها ، وأخص فرع من فروع الفلسفة عرف به كروس فلسفة الروح التى يقسمها إلى علم الجمال والمنطق وما يسميه فلسفة السلوك (يعنى بذلك الأخلاق والاقتصاد) (المترجم)

« برغسون » و « ويليم جيمس » لأنهم جميعاً يفكرون وجود « مطلق » لا يتحرك ولا يتغير ، أو بعبارة أخرى يفكرون وجود « عالم جامد » ، وُجِدَ كاملاً وسيظل إلى الأبد على كماله . ففي السكون حركة فعل تجول في دوائر لا مبدأ لها ولا نهاية ، غير أننا في قدرتنا أن نميز بين بعض وجوه تلك الحركة الروحية ومظاهرها أو عواملها ، وإن كنا لا نستطيع فصل أحد هذه المظاهر عن الآخر ؛ فيمكننا أولاً أن نميز بين الفعل الروحي في دائرته النظرية والفعل الروحي في دائرته العملية . بل يمكننا أن نفرق بين شيئين مختلفين في كل من هاتين الدائرتين ؛ ففي الدائرة النظرية يفرق « كروس » بين الإدراكات الذوقية والتصورات ، لأنه يعرف الإدراك الذوقي بأنه عملية بها يخلق العقل مادة التفكير ، ويقول إن أكل مثالي له الإلهام الذي به يخلق الفنان مادة فنّه ، لأن عقل الفنان لا يستمد مادته من العالم الخارجي (كما يعتقد الناس عادة) بل هو يُبرزُ أو يخلق إدراكاته الذوقية خلقاً . ثم يأتي بعد ذلك الإدراك العقلي أو التفكير فيعمل في هذه الإدراكات الذوقية ويكشف ما بينها من نسب ، أو ما فيها من عناصر عامة مشتركة . والحقيقة أن الصور العقلية (الأفكار) باطنة في الإدراكات الذوقية ، وأن النوعين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ؛ فإن الإدراكات الذوقية بدون الأفكار عمياء ؛ كما أن الأفكار بدون الإدراكات الذوقية جوفاء . ومع ذلك فالصور العقلية أو الأفكار شأن خاص ، وهي أمور تشترك فيها العقول أو الأرواح جميعها ، وبها يحصل التفاهم بين هذه العقول أو الأرواح . فهي إذن عامة لأنها مظهر من مظاهر الروح السكلي

الذوق

خالق

بين

بين

مست

عملية

الأفكار

إلى

في

وأن

فرد

منفرد

عن

إيش

(١٢)

الذى يتخلل سائر العقول الجزئية الإنسانية

أما الموضوعات التى يتناولها التفكير النظرى فهى على الدوام من خلق هذا التفكير ، بل الحقيقة أن عملية التفكير وموضوع التفكير والتميز بين الاثنين ، كلها نواح مختلفة لشيء واحد هو الإدراك فى جملته . والتميز بين العالم العقلى والعالم المادى الذى يبدو لنا كأنما يتكوّن من أعيان مستقلة فى وجودها ، إنما هو من فعل العقل لا غير ، أى من فعل عملية التجريد .

وتنحصر الناحية العملية من فعل الروح بالضرورة فى الإرادة ، لأن الأفعال الطبيعية لا وجود لها فى عالم روحى . والناحية العملية مفتقرة أبداً إلى الناحية النظرية لافتقار الإرادة إلى العلم . ويفرّق كروس بين اتجاهين فى الحياة العملية ، اتجاه نحو تحصيل النافع ويسميه الفعل الاقتصادى ، واتجاه نحو تحصيل الخير ويسميه الفعل الأخلاقى . والاتجاه الأول اتجاه فردى أنانى ، والثانى اتجاه عام إشارى . غير أن هذين الاتجاهين غير منفصلين كما أن العلم الذوقى والعلم النظرى غير منفصلين — بل يعبران عن ناحيتين مختلفتين لشيء واحد ، بمعنى أن كل فعل من الأفعال أنانى إشارى معاً

(١٢) جنّتل^(١) Gentile ولد سنة ١٨٧٥

يتخذ جنّتل التربية وسيلة إلى الوصول إلى فلسفته ، لأن التربية فى

(١) جيوفانى جنّتل : فيلسوف وسياسى إيطالى : درس الأدب والفلسفة فى =

نظرة عبارة عن تكوين للفرد ينتهي به إلى الفلاسفة التي هي أرقى مرتبة من مراتب الشعور بالذات ، والشعور بالذات عنده هو الحقيقة التي ليس وراءها حقيقة ، وذلك لأننا لا نقول بوجود أي شيء على سبيل القطع سوى شعورنا بذواتنا ، ولأننا نجد في ذلك الشعور الذاتي الغناء عندما نرجع إليه في تفسير معنى الحقيقة ؛ فإن الحقيقة يكفى في تصورنا تصويراً كاملاً أن يقال عنها إنها ذلك الشعور الذاتي . أما الشعور الذاتي . أو الشعور بالذات في اصطلاح « جنتل » فهو العقل أو الروح . وللعقل في مذهبه وحدة لها من الأحكام والارتباط أكثر مما لها في نظر « كروس » الذي جعل للعقل أربع درجات مختلفة ، أو أربعة مظاهر لكل مظهر منها فعل خاص به كما سبق . ولهذا ينكر « جنتل » كل رأي يعتبر العقل أو الشعور مقسماً إلى مثل هذه الأقسام ، ويقرر أن للشعور وحدة شعورية كاملة . أما التمييز الذي لا مناص منه بين العاقل والمعقول أي بين الذات المدركة والشيء المدرك — فليس من العقبات التي تمنع « جنتل » من المضي في فلسفته ؛ فإن العاقل والمعقول يجتمعان معاً في العقل في حالة شعوره بنفسه ، إذ العقل من هذه الحالة ذات مدركة في الوقت الذي هو فيه موضوع مدرك : أو بعبارة أخرى هو عاقل في الوقت الذي هو فيه معقول . وليس كلٌّ من العاقل والمعقول في هذه الحالة جزءاً من العقل ، بل العقل

= بلرمو وعين أسناداً للفلسفة في روما . وبعد جنتل من أكبر أنصار المذهب الفاشستي عين وزيراً المعارف في إيطاليا في أوائل عهد السنيور موسوليني ، وكان من أكبر همه في وزارته إصلاح نظام التعليم الديني وحث المعلمين على دراسة النمو العقلي للأطفال لأن الغاية من التربية عنده هي تكوين الشخصية (المترجم)

بأ كمله . ويلزم من هذا أن كل معلوم ، أو كل ما يتعلق العلم به هو والعقل الذي يدركه شيء واحد : أى أن كل معلوم يصبح — بتفكير العقل فيه — عقلاً أو شعوراً ، لأن العقل لا ينفك أبداً عن المعقول . « فكل موجود هو ما هو بفضل تفكير العقل فيه » ؛ وتفكير العقل فى أى شيء هو نفسه تفكيره فى ذاته وتحقيق لها . وكما أن كل عقل جزئى ، أو كل روح ، يشعر بذاته فى كل حالة يدرك فيها شيئاً من الأشياء : أى كما أن شعور العقل الجزئى بذاته داخل فى كل إدراك من إدراكات ذلك العقل ، كذلك العقل الكلى — أو الروح الكلى ، يدخل شعوره بذاته فى شعور كل عقل جزئى بذاته : أى أن المعقول الجزئية حالات أو مظاهر للعقل الكلى الذى يخلق العالم ، والذى هو العالم نفسه .

ولالإدراك^(١) (سواء أكان جزئياً أو عالمياً — أى سواء أكان لعقل جزئى أم للعقل الكلى) ناحيتان : ناحية العقل المدرك — الذات ، وناحية الشيء المدرك أو الموضوع . ولا تنفصل أبداً إحدى هاتين الناحيتين عن الأخرى انفصلاً حقيقياً ، وإن كان يمكن التمييز بينهما عقلاً

وأهم ما يبحث فيه الفن فى نظر «جنتل» الإدراك من ناحيته العقلية ، وأهم ما يبحث فيه الدين هو الإدراك من ناحيته الموضوعية ، أما الفلسفة فتبحث فى الناحيتين على السواء — أى أنها تبحث فى الشعور الذاتى (شعور الإنسان بذاته) أو هى تبحث فى الوجود جميعه . وعلى هذا يعتبر

(١) أظن أن أوفق ترجمة لكلمة «experience» كما يستعملها جنتل هى كلمة إدراك بدلا من كلمة خبرة أو اختبار أو تجربة . (الترجم)

« جنّتل » الفلسفة صورة كاملة يجتمع فيها الفن والدين وبلتيمان . فالفلسفة تعبّر عن الوجود بتأمه — أو الواقع بتأمه — أو الروح . والفيلسوف لا يبحث عن الوجود أو يفكر في الوجود فحسب ، بل هو إلى حدّ ما يخلقه خلقاً .

(١٣) رويس^(١) J. Royce ١٨٥٥ — ١٩١٦

يعد رويس أشهر فيلسوف أمريكي من أتباع المذهب المثالي . وتشبه فلسفته من بعض وجوهها الفلسفة المثالية المطلقة التي قال بها « برادلي » بدأ رويس فلسفته بالنظر فيما يسميه بالمعاني الجزئية ، فقال إنها ليست مجرد صور ذهنية في العقل ، بل إن كل فكرة تتضمن ، بالإضافة إلى كونها صورة ذهنية ، نوعاً من الفعل ؛ أي أن كل فكرة تتضمن غاية من الغايات . وللفكرة عنده معنيان^(٢) ، معنى ظاهر وآخر باطن . فمعناها الباطن هو الغاية التي تحقّقها الفكرة ، ومعناها الظاهر هو دلالتها على شيء .

(١) فيلسوف أمريكي : درس الفلسفة على « لُطزّه » كما درس على « وليم جيس » وتشارلس بيرس . كان أستاذاً للفلسفة في جامعة هارفارد سنة ١٨٩٢ ، وكان واسع الاطلاع عالماً وأديباً وفيلسوفاً . وقد ألف في علوم مختلفة منها الرياضة (من ناحية اتصالها بالمنطق) ، وفي علم النفس والأخلاق والاجتماع وتاريخ الأدب والنقد الأدبي والفلسفة . وتشبه فلسفته في كثير من نواحيها فلسفة برادلي ، لأن الاثنين من المدرسة « المثالية » ؛ كما يشبه برادلي أيضاً في غموض تفكيره والتواء معانيه واستعماله كثيراً من الاصطلاحات الفلسفية في غير مفهوماتها المتعارفة (المترجم)

(٢) وهما غير المفهوم والمصدق اللذين يتكلم عنهما المناطقة ، إذ المفهوم دلالة اللفظ على معناه ، أو الصفات التي يتألف منها معناه ، والمصدق الأدلة للفظ على الأفراد التي يصدق عليها اللفظ (المترجم)

خارج عنها . غير أن ذلك الشيء الذي يدل عليه المعنى الظاهر للفكرة ليس حقيقة ذاتية مستقلة عن إدراك العقل لها : ولهذا يقول « رويس » إنه لكي يرتبط المدلول الخاص للفكرة بالفكرة نفسها ، يلزم أن يكون بينهما عنصر مشترك . ويستنتج من هذا أن حقيقة أى شيء تدل عليها فكرة من الأفكار هي تحقيق المعنى الباطن الذي تنطوي عليه تلك الفكرة ، ويلزم منه أيضا أن تحقيق الغاية التي ينطوي عليها باطن فكرة من الأفكار — أى تحقيقها في إدراك من الإدراكات — يكون في نظر « رويس » حقيقة الشيء الذي هو موضوع هذه الفكرة . أما أن الغاية من الشيء قد تحققت بالفعل أو لم تتحقق فأمر يرجع فيه إلى الفكرة ذاتها ، لأن الفكرة بهذا المعنى — تحمل في نفسها الغاية المقصودة منها ، كما تحمل في نفسها إرادتها .

وقد انتهى هذا الأسلوب من البحث « برويس » إلى القول بأن الفكر حياة شعورية ، وأن في هذه الحياة أفكارا ، وأن كل فكرة منها ترمى إلى غاية ، وأن الغايات التي ترمى الأفكار إلى تحقيقها تتحقق بالفعل ، أو « تتجسّم » في الأشياء الخارجية التي تدل عليها الأفكار . فالوجود « معناه الظهور في العالم الخارجي بما يعبر عن المعنى الباطن الكامل الذي تتضمنه وحدة فكرية منظمة » ، لأن الحقيقة بمعناها الكامل يجب أن تتحقق فيها معاني الأفكار جميعها . ولهذا يلزم أن نفترض أن المعاني الجزئية (الأفكار المتناهية) داخلية في هذه الوحدة الفكرية المنتظمة الكاملة وأن الغايات التي ترمى إليها هذه الأفكار مندرجة تحت غاية واحدة

جامعة لها كلها — تلك الغاية التي لا يحققها سوى الوجود بأسره .
ويحتوي الشعور الكلي (أو الإدراك الكلي^(١) Absolute experience)
أيضاً الشيء الكثير مما لا وجود له في الحالات العقلية الجزئية ، ولكن
« رويس » لم يقصد من هذا أن أفراد الإنسان (العقول الإنسانية
الجزئية) غارقة أو مندججة في « المطلق » (العقل الكلي) لأنه يقول إن
كل عقل إنساني محتفظ بذاتيته بشكل ما ، أي أن كل إنسان — في
نفسه — مظهر من مظاهر الإرادة المطلقة ، أو الإلهية : أو هو صوت
يعبر عن معنى من معاني هذه الإرادة : وبذلك يكون كل فرد من أفراد
الإنسان جزءاً خاصاً من « الكل » الذي لا يضارعه في الوجود مضارع .
كذلك لم يبطل « رويس » معنى الزمان من حيث علاقته بالمطلق
(العقل الكلي) بأن استعاض عنه معنى الأزلية الذي يختلف كل
الاختلاف عن معنى الزمان . نعم قد استعمل كلمة الأزلية ، ولكنه قال
إن الأزلية هي إدراك « المطلق » للزمان بأسره دفعة واحدة في آن
واحد ، كما يدرك الإنسان النغمة الموسيقية العامة إدراكاً آنياً بعد سماعه
طائفة متتالية من النغمات .

وتسترعى فلسفة رويس الأخلاقية نظر الباحث فيها بوجه خاص ،

(١) نستعمل كلمة « experience » (خبرة) في علم النفس بمعنى الشعور أو أي
حال من حالات الشعور واقعة في الزمان — ولكن بعض الفلاسفة الحديثين لا سيما
برادلي ورويس يستعملونها في معنى غامض كل الغموض ويفسدون المعنى الأصلي للكلمة
كل الفساد : فهم يتكلمون مثلاً عن Absolute experience (الخبرة المطلقة) ،
ويقصدون بذلك حالة عقلية خارجة عن حدود الزمان ، وكان الأولى بهم أن يستعملوا
كلمة العقل أو كلمة الإدراك بدلا من كلمة « الخبرة » (الترجم)

وذلك لما تعتمد عليه من أساس جديد لم يُسبق إليه ، وهو « الإخلاص لمبدأ الإخلاص » . أما الإخلاص فيعنى به تفانى المرء في خدمة مبدأ من المبادئ ، يعتبره فوق الاعتبار النفسى ؛ فإن كان إخلاصه لهذا المبدأ لا يحول بينه وبين احترامه لغيره من الناس الذين يخلصون أيضاً لمبادئهم ؛ بل على العكس يدفعه إلى العمل معهم ومؤازرتهم كلما وجدت روح الإخلاص إلى نفسه سبيلاً . فإنه يكون قد أخاص ، لا لمبدئه الخاص فحسب ، بل لمبدأ الإخلاص من حيث هو . هذا هو « الإخلاص لمبدأ الإخلاص » الذى يرجو رويس أن يذيع وينتشر فتتحقق بذيوعه وانتشاره « الجامعة الإنسانية الكبرى » ويزول بفضله كل شقاق وعداوة بين الأمم .

(١٤) هـ كنج W. E. Hocking ولد سنة ١٨٣٢

لم ينته هـ كنج بعد من مذهبه الفلسفى الذى يصفه بأنه مذهب « تصوفى واقعى » بل لا يزال جادا فى تهذيبه . ويحتوى هذا المذهب ، إلى جانب ما وصفه به المؤلف من أنه تصوفى وواقعى ، عناصر أخرى مستمدة من الفلسفة المثالية والفلسفة الطبيعية والفلسفة العملية ؛ بل ربما كان العنصر المثالى أكثر هذه العناصر غلبة عليه . ومما يشير إلى ذلك عبارة « هـ كنج » نفسه ، تلك العبارة التى يقول فيها : « إن الفلسفة المثالية جوهر الفلسفة وروحها أكثر منها أسلوبا خاصا من أساليب التفكير الفلسفى » .

وربما كان من أهم أجزاء فلسفة «هكنج» رأيه في الإدراك الحسى وقوله
إنه حلقة الاتصال بين النفوس البشرية الكثيرة . وأن بواسطته نعرف
غيرنا من النفوس البشرية الأخرى معرفة مباشرة ، لا ، بل نعرف الله :
جلست ذات يوم أنظر إلى صديق لى مفكراً فى العزلة التى بيننا ، وقلت
فى نفسى يا ترى لم خُلِقْنَا بحيث لا أرى منك أيها الصديق عند ما أنظر
إليك إلا حجاباً يستر عني ، فلا أستطيع أن أراك « نفسك » أبداً !
أليس حجابك هذا سوى جزء متحرك من ذلك الحجاب الذى يختفى
وراء عالمى ؟ هاأنذا كذلك حجاب لك ، فكل منا ينظر إلى أخيه من
وراء حجاب . لىتنى أستطيع أن ينفذ عطفى ، ولو لحظة ، إلى عقلك فقلتقى
دون أن يحول بيننا حائل ! وبيننا أنا كذلك ألقى فى روعى ما وقع منى
موقع الصاعقة ، وكأننى أدركت معنى العزلة فى قرارة نفسى فشعرت كأنما
أصابنى شيء من المس ، إذ أدركت أننى بالفعل متغلغل فى « نفسك »
أيها الصديق ، فإنك تدرك كل هذه الأشياء التى حولى ، وهى ملك لك .
فإذا لمستها أو حركتها أحدثت تغيراً فى نفسك ؛ وإذا نظرت إليها رأيت
منها ما ترى أنت ، وأدركت نفس إدراكك . أين أنت إذن ؟ لأنك
لست شيئاً مخفياً وراء هاتين العينين اللتين أراهما فى رأسك ، ولا أنت فى
داخل ذلك الدماغ تحاول فى ظلامه الحالك أن تتصل بعملياته الكيميائية ،
فإننى لا أدرى من هذه العمليات شيئاً فى نفسى ، ولن أدرى من أمرها
شيئاً ، لأننى لا أعيش وراء حجابى . بل الحجاب هو الذى ورانى . . .
وأنت أمام ذلك الحجاب أيضاً ؛ فهذا العالم الذى أعيش فيه ملك لنفسى ،

وأنا جزء من ذلك العالم الذي ندركه معا . فأنا لذلك لا أقدر أن أتصور
وُصلةً أحقّ ولا أبلغ في النفس أثراً من أن نلتقي فنشاطر الذاتية — لا عن
طريق ما في أعماق نفوسنا مما لا يمكن التعبير عنه من الخواطر فحسب ،
بل عن طريق ما يبيننا من الإدراك المشترك أيضاً ، بحيث لا نلتقي من
وراء حجاب ، بل بأن تكون معي بكل ما فيك من شعور ، وبأن
تحتويني في نفسك وتحتوي كل ما هو ملكٌ لي . هذه هي الحقيقة ، فلن
أفزع مرة أخرى بعد ما شاهدتها إلى مذهب « الجواهر الروحية الفردة »
(المونادزم) بأساليب من التفكير النظري قد ضلت هذا الطريق المستقيم .
يقول هكنج بعد ذلك إن الأشياء التي نعلمها علماً مباشراً هي
إدراكنا الحسية ، وإن « شيئية » الشيء هي ما توأماً عليه الناس .
فمعرفة الانسان بشيئية الطبيعة يفترض أنه يعرف في الوقت ذاته أن نفساً
أخرى ، واحدة على الأقل ، أو أن عقلاً آخر يدرك ما يدركه هو ؛ وهكذا
ينتهي الأمر بنا إلى افتراض عقل غير بشري يعطى الطبيعة « شيئيتها » ،
لأن النفس الانسانية ذاتها مفتقرة إلى الطبيعة ، فلا تكون الطبيعة
مفتقرة إليها . وهذا « العقل الآخر » الذي نرتقي إليه في نهاية الأمر
هو بالضرورة الله الذي أحاط بكل شيء . علماً ، والذي يعطى « الشيئية »
لكل علم حتى علمنا بغيرنا من الناس .

والواقع أن « هكنج » يعتبر العالم كله نفساً واحدة حيث يقول : « إن
كلمة النفس تشير بوجه خاص إلى وحدة الحياة العقلية في العالم ، وإن
معاني الأشياء جميعها تنظمها إرادة واحدة » . أما الدليل القاطع على أن

العالم كله نفس واحدة فلا سبيل إليه إلا الإدراك المباشر ، وفي هذا يقول « هكنج » : « إن النفوس البشرية تعلم أنها ليست في العالم وحدها : وهذا أول علم ذوقى وضرورى نعلمه » غير أن النفس العالمية لا حدَّ لعمقها ولا نهاية لما تحتويه من الأسرار .

والحياة الإنسانية في نظر « هكنج » تواقه بطبيعتها إلى معرفة الحقيقة ، والحقيقة عالم فيه من ضروب الكمال ما لا حدَّ له . والنفس الإنسانية تشبُّرُ الزمان ماضيه ومستقبله ، وهي حرة طليقة ، حياتها المثل العليا ، وتدرك من بين الأشياء التي بالقوة ما سيكون منها بالفعل . ولكن ليست هذه الصفات للنفس الإنسانية بفطرتها ، فإن حريتها وخلودها يحصلان لها بالكسب . وبهذا المعنى يقرر كل إنسان مصيره بنفسه .

الفصل السادس

مذهب التعدد الروهي

أو الكثرة الروحية في إنجلترا وروسيا

(١٥) الأزل بلفور^(١) The Eral of Balfour ١٨٤٨ — ١٩٣٠

يظهر أن « الأزل بلفور » كان من أنصار المذهب الفلسفي المعروف بمذهب الشك؛ غير أن انتصاره لمذهب الشك الفلسفي لم يكن في الحقيقة إلا انتصاراً للعقيدة الدينية، أو على الأقل انتصاراً لوجهة نظر روحية. وقد قضى « بلفور » الشطر الأول من حياته في جو مغمم بالنزاع بين الفلسفة والدين، ذلك النزاع الذي كان نتيجة تابعة لمذهب دارون، فكان للاعتقاد السائد في ذلك الوقت — وهو أن التعاليم العلمية لا تتحمل الشك — أثر في نفسه. ولكنه ظهر له بعد ذلك أن أدلة العلم (كما

(١) هو آرثر جيمس أرل بلفور سياسي وفيلسوف إنجليزي ولد في يولية سنة ١٨٤٨ وتخرج في جامعة كمبردج. تقلب في كثير من الوظائف الحكومية والسياسية وأخذ بنصيب وافر من سياسة حكومته في الحرب العظمى وكان من أكبر المدافعين عن مبدأ حرية التجارة. ويعرف عنه فيما يتصل بالشرق الأدنى وعده بأن ترد إنجلترا لليهود وطنهم القديم: فلسطين. ولم تحمل مشاغله السياسية بينه وبين الاتصال بالبيئات العلمية والفلسفية، فقد ترأس على عدد كبير من الهيئات العلمية الراقية في وطنه وكان آخر حياته الرئيس الأعلى لجامعته القديمة: كمبردج (المترجم)

يشرحها « ميل » في كتابه في المنطق) ليست بأبين من أدلة الدين ،
فهدم بالشك أسس العلوم لينتصر لأسس الدين ، وقال إن العقيدتين
الأساسيتين (الدين والعلم) اللتين يسترشد بهما الانسان في حياته ، يجب
النظر فيهما باعتبارهما مؤسستين على أساسين مختلفين ، وإن مواطن
الخلاف بين الاثنتين ينبغي ألا تؤوّل في غير صالح الدين أكثر منها في
غير صالح العلم . ولكن « بلفور » - كما هو ظاهر من كتاباته الأخيرة
- لم يقنع بهذه التفرقة بين العلم والدين ، ولم يرق في نظره أنهما قد اتفقا
على أن يختلفا ، فحاول ما استطاع التوفيق بينهما ، وكان من رأيه أن العلم
ذاته لن ينجو من شك هادم لسكيانه إلا بافتراض وجود الله واعتباره
أصلا يصدر عنه كل معرفة .

ولما قابل « بلفور » تجرره من الشك بتحرر « ديكارت » قال :
« إن ديكارت علّق الاعتقاد في العلم على الاعتقاد في الله . أما أنا فأعاق
الاعتقاد في الله على الاعتقاد في العلم » ، فالحقيقة أن « بلفور » لم يكن
شاكاً في العلم لأنه قد اعترف بصحة الأحكام التي تصدر عن « الذوق
الفطري » وبصحة العلم وقال إنهما حق ، أو على الأقل ساثران في
طريقتهما إلى الحقيقة . ولكنه من ناحية أخرى يوقن بأنه لا وسيلة لتبرير
مثل هذه الاعتقادات إلا بصبغها بصبغة دينية ؛ وحجته في ذلك أن العلم
- في صريح الرأي - مستند إلى الحس ، ولكنه يختم كلامه بقوله :
ولكن الأشياء المحسّنة تختلف في الواقع اختلافا عظيما عما يظهر لنا في
الحس ؛ فإن العلم يرجع عالم الحس وما فيه من مادة غزيرة واختلاف

في العناصر إلى مركبات مؤلفة من « الكِترونات » و « بروتونات » لا يقع عليها الحس . فنتائج العلم إذن تُناقض مادته الحسية . ومن ناحية أخرى ، تعتبرُ نظرية التطور القوى والاستعدادات الإنسانية آلات ظهرت في الإنسان في سبيل تنازع البقاء ، وقد لا تصلح هذه القوى في معالجة المسائل النظرية البحتة التي ليس لها قيمة في تنازع البقاء ، ولكننا مع كل ذلك نجد أن اعتقاداتنا الصادرة عن ذوقنا الفطري (Common sense) أحكام ضرورية لا مفر منها ، وأن العلماء والشاكرين جميعا يدركون الأشياء على نحو ما يدركها غيرهم ، ويفترضون كما يفترض غيرهم وجود علاقات عِلِّيَّة بين الأشياء إلى غير ذلك . لهذا يرى « بلفور » أن لا أساس للاعتقاد في صحة ما ندركه بحواسنا وما نصل إليه من النظريات والفروض ؛ إلا أن نفترض أن المعرفة الإنسانية بكل أنواعها وحى من الله الذي يهدي العقل إلى اسمى ما يصل إليه من النتائج ، تلك النتائج التي تربي بكثير على ما يتطلبه مجرد البقاء ، ولكنها في الوقت نفسه عامل ضروري في تطور الإنسان ورفيقه .

فإذا انتقلنا « بيلفور » إلى الناحية الاخلاقية من فلسفته الفيناء ينكر الرأي القائل بأن ما في الإنسان من أرقى درجات الإخلاص ، وأعمق مراتب الحب ، وأنبيل ضروب التضحية ، كلها نتائج خلقتها فيه محاولته التوفيق بين مطالبه ومطالب البيئة التي يعيش فيها ، بل وجدناه يقول : « إن عملية الانتخاب الطبيعي يجب أن تعتبر الأداة الحقيقية التي تتحقق بها الغايات ، لا مجرد شيء يشبه هذه الأداة وأن

الأخلاق يجب أن تستمد مبادئها الأساسية من أصل إلهي ، وأن تجد في ذلك الأصل الإلهي غايتها وكاملها « كذلك الحال في القيم التي يقاس بها الجمال ، فإننا « إذا رجعنا بالذكري إلى تلك اللحظات النادرة التي أثار شيء من الأشياء الجميلة فيها وجداننا ، فلم يملك علينا مشاعرنا فحسب ، بل ارتقى بنا إلى مشاهدة عالم فوق طور الحس البدني أو النظر العقلي ... وجدنا واجباً علينا أن نعتقد أن نعمة جمالا لا يعتريه التغير ، لا حدّاً لبهائه وروعته ، يتلأ لأضوؤه على الدوام لموجود ما ؛ جمالا لا نرى منه في الطبيعة ولا في الفن إلا طيف خيال عاجل ، ووميضاً أشبه بوميض البرق يراه كل منا بحسب وجهة نظره الخاصة .

وهكذا نرى أن طرائق البحث الثلاث تلتقي في نقطة واحدة في فلسفة « بلفور » لتبين أن كل كمال في الطبيعة الإنسانية ، سواء ما اتصل منه بالعالم ، أو بالخير ، أو بالجمال - لكي تكون له قيمته الحقيقية - مفتقر إلى الله في قوامه ، وأن الله مع الحق والخير والجمال ، يسير العالم بحكمته في طريق التطور ، وأنه تعالى منبع الإلهام الذي هو عامل قوى في تقدم العلم ، ونمو الحب ، ولذة تقدير الجمال .

(١٦) ج . وورد^(١) J. Ward ١٨٤٣ - ١٩٢٥

يتفق « وورد » مع السابقين والمعاصرين من فلاسفة « المذهب

(١) جيمس وورد فيلسوف انجليزي وعالم نفسى كبير ؛ نال حظاً من الثقافة الانجليزية والألمانية وكان في آخر حياته أستاذ الفلسفة بجامعة كمبريدج التي تخرج فيها : متأثر بفلسفة ليبنتز واطرزة .
(المترجم)

المثالي « في نظريتهم القائلة بأن « الإدراك^(١) بالفعل » لا يتضمن شيئين
هما المادة والعقل ، بل يتضمن ذاتاً عاقلة وموضوعاً معقولاً . وعلى هذا
فالإدراك أثنيانية في وحدة ؛ وهو رأي لا يتنافى مع مذهب « الوحدة
الروحية » الذي تعتبر فيه وحدة الطبيعة جزءاً متما لوحدة الإدراك .
ولكن « وورد » يخالف غيره من المثاليين في أنه يرفض أن يجعل
« المطلق » نقطة البدء في فلسفته ؛ ويفضل أن يبدأ بفرض وجود أكثر
من حقيقة واحدة . ثم يمضي في سبيله ليرى إلى أين ينتمى به هذا الفرض
الذي تغلب عليه الناحية التجريبية أكثر من الناحية العقلية النظرية .
لهذا بدأ « وورد » بفرض وجود عدد لا نهاية له من الكائنات الروحية
المختلفة المراتب ؛ فبعضها مثلاً أرقى بكثير من العقول البشرية ، وبعضها
أدنى ، ولكنها كلها متفقة في أمر واحد هو المحافظة على كيائها وتحقيق
ماهيّاتها . وقد استند « وورد » في قوله إن كل الكائنات روحية وإن
كلا منها فرد مستقل فيه خاصية النزوع ، إلى مبدأ الدوام أو الاتصال ؛
أي المبدأ القائل بعدم وجود الطفرة في الطبيعة . فلا بد إذن أن تكون
هذه الكائنات الروحية النزوعية ، أو الجواهر الفردة ، متصفة بصفة
التلقائية ؛ أي لا بد أن تصدر عنها أفعالها من تلقاء نفسها — بمعنى أنها
لا يمكن أن تعتبر من أول أمرها خاضعة لقوانين آليّة بحتة . وربما كان
خير تفسير لما في الكون من القوانين الطبيعية وما في الطبيعة من ظواهر

(١) هنا أجدني مرة أخرى مضطراً إلى ترجمة كلمة experience بكلمة إدراك
لأنها أقوى في التعبير عن فرض « وورد » وغيره من الفلاسفة المثاليين من كلمة
« خبرة » أو « اختبار » أو « تجربة » (المترجم)

الميكانيكية أن تُفسَّر على أنها أفعال طبيعية تلقائية تحولت إلى عادات منتظمة . لا ، بل قد تظهر لنا أكثر انتظاماً واطراداً مما هي عليه في الواقع لو أننا اختبرناها بطرق إحصائية . زد على ذلك أن اشتراك هذه الجواهر الروحية في العمل ، والطريقة التي بها تلتئم وتنتظم ، وسيلتان من وسائل التطور ، لأن اتحادها وتركيبها بمثابة الخلق الجديد الذي هو أشبه شيء بظهور النغمة الموسيقية العامة عن نغمات جزئية فردية يتلو بعضها بعضاً على نظام خاص ؛ أو هو أشبه بظهور مستوى معين من الثقافة عند ما تلتئم جماعة من الجماعات ويسود فيها نوع خاص من النظام . وما على الإنسان — لكي يدرك الغاية التي يؤدي إليها ذلك النوع من التطور — إلا أن يتصور « الدرجة القصوى التي تصل إليها أمة سادت فيها روح الديمقراطية وحب الجماعة وتجلي فيها التضامن من بين أفرادها ، وانمحي الشقاق والتنافر ، وأصبح يعمل فيها الجميع بدأً واحداً على تحقيق غاية واحدة » .

بهذه الطريقة يعتقد « وورد » أنه — من غير التجاء إلى الغلو في التفكير النظري — قد نجح في شرح حقيقة العالم على أساس أنه مؤلف من « كثرة روحية » أو « جواهر روحية فردية » مستقلة في وجودها وفي أصل نشأتها ، ولكها على الدوام في فعل وانفعال كل منها مع الآخر أي أن العالم كما يقول « وورد » نفسه : « كثرة وجودية ، ولكنها بمعنى من المعاني وحدة كونية » ؛ غير أن « وورد » قد شعر أن فلسفته هذه « تستند إلى مبرر خارج عنها » ، ولذلك رجع إلى القول بالألوهية يتخذ

منه تكلم
عادة في
بمعنى من
لنفسه في
أدخل
هذه المسألة
على أساس
(١٧)
و
خاص
ناحية
مذهب

(
الفرد
الفردة
فقد سبب
الجزء
الألوهية
فكان أ
القدرات
)
كمبردج

منه تكلمة لمذهبه في السكثرة الروحية^(١) . نعم هو ينكر ما يعتقدده الناس عادة في مسألة الخلق ، ولكنه يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حافظ للعالم بمعنى من المعاني ، وأن حفظه للعالم ؛ إنما هو بوضعه على الدوام حدوداً لنفسه في فعله فيه . وقد فطن « وورد » إلى أن الجزء الديني من فلسفته أدخل في البحث النظري من غيره من الأجزاء الأخرى ، لذلك اعتبر هذه المسألة مسألة اعتقاد كما فعل « كنت » وبنى الاعتقاد في وجود الله على أسس أخلاقية

(١٧) صورلي^(٢) W. R. Sorley وُلد سنة ١٨٥٥

وجه صورلي جل عنايته إلى الناحية الأخلاقية من الفلسفة بوجه خاص . وهو يعتبر أن « إدراك القيم » لا يقل عن إدراكنا الحسية من ناحية أن كلا منهما مادة لتجاربنا ، ولهذا لا يمكن إغفال القيم في أي مذهب فلسفي يحاول تفسير الحقيقة بأكملها . و « التجربة التقديرية »

(١) ولم يكن « جيبس وورد » أول من أحس بعدم كفاية مذهب « الجوهر الفرد » فاضطر إلى القول بالألوهية : أي إلى القول بوجود إله ينظم حركة الجواهر الفردة ويدبرها بحيث تتلام أو تتنافر فيظهر عنها ما يظهر من الظواهر والخواص ، فقد سبق « وورد » إلى هذا من فلاسفة الإسلام الأشاعرة الذين أخذوا مذهب « الجزء الذي لا يتجزأ » عن ديموقريط الفيلسوف اليوناني وأضافوا إليه فكرة الألوهية . أما « لينتز » ، وهو زعيم مذهب « القدرات الروحية » في العصر الحديث فكان أقرب إلى « ديموقريط » في نزعه لأنه لم يشعر بضرورة وجود إله إلى جانب القدرات . (المترجم)

(٢) وليم راسي صورلي عالم انجليزي . كان أستاذ علم الأخلاق في جامعة كمبردج إلى سنة ١٩٣٣ : أحس أبحاثه في الفلسفة الخلقية وفلسفة القيم بوجه عام . (المترجم)

— كغيرها من التجارب الأخرى — حالة نفسية ؛ ولكن كل تجربة على
تشير من ناحية أخرى إلى شيء خارج عنها نسميه « موضوعاً » . وهذا
يصدق على التجارب التقديرية كما يصدق على ذلك النوع من الإدراك
الذي نسميه بالعلم أو المعرفة . وليس يغير من هذه الحقيقة شيئاً أن التجربة
التقديرية تتضمن نوعاً من الشعور الوجداني ومن الرغبة . بل قد يكون
الموضوع الذي تشير إليه « التجربة التقديرية » وجداناً من الوجدانات
أورغبة من الرغبات يشعر بهما بعض الناس ويكون لهذه الوجدانات
والرغبات من العينية أو الموضوعية في نظر المدرك للقيم مثل ما لأعيان
المحسوسات في نظر من يدركها إدراكاً حسياً . فالقيم إذن أمور عينية أو
موضوعية ، ولو أنها — أو بسبب أنها — صفات للحياة الشخصية .
والأشخاص جزء من النظام الكوني العام ؛ وهم الذين يحملون القيم لأنها
تمثل في حياتهم وأخلاقهم . فغربة الرجل الخير لا تقل في عينيتها أو
موضوعيتها عن الرجل نفسه . فإذا اعترض معترض بأن الحياة الإنسانية
كثيراً ما تكون مجرد جهاد في تحقيق المثل العليا — التي هي القيم —
لا في تحقيقها بالفعل ، كان جوابنا أنه على فرض صحة هذا ، فإن المبادئ
الأخلاقية التي تدفع بالناس إلى طلب المثل العليا ، حتى بعيدة المنال منها ،
لا تقل في موضوعيتها عن القوانين الطبيعية . نعم تختلف المبادئ الأخلاقية
عن القوانين الطبيعية في نوع الموضوعات التي يصدقان عليها ، وفي طريقة
تطبيق كل منهما ؛ فإن القوانين الطبيعية تنصب على الأشياء الوائمة في
الزمان والمكان ، وصدقها معناه أنها متحققة بالفعل . أما القيم فتنصب

على الح
يشعر
الناحية
الأخلا
في النا
و
أن العا
ما يحيط
والأص
الحررة
(١٨)
أن مه
أ كان
الأمس
)
الحاضر
الفلسفة
علمية
في الفلس
المجلات

على الحياة الشخصية ، وصدقها معناه أنها تعبر عن مثال من المثل العليا
يشعر الناس بأنه ينبغي تحقيقه . بعبارة أخرى من القوانين الطبيعية تتألف
الناحية العلية من نظام الكون ، ومن المثل العليا (القيم) تتألف الناحية
الأخلاقية منه . فلا غنى في أى نظرية تحاول تفسير الكون ، عن النظر
في الناحيتين ومحاولة التوفيق بينهما .

وتتلخص النتيجة التي وصل إليها « صورلى » في حل هذه المسألة في
أن العالم يتألف من عقل أعلى هو الله الذي تستمد منه العقول الجزئية وكل
ما يحيط بها حقيقتها : وهو الخالق لكل المثل العليا (القيم) وهو جوهرها
والأصل الذي تصدر عنه ، ولكنه على استعداد لأن تشاطره العقول
الحرّة التي تفتقر في وجودها إليه ، بأن تأخذ بحظ من هذه المثل العليا .

١٨ (تيلور ^(١)) A. E. Taylor ولد سنة ١٨٦٩

يمتاز « تيلور » على الأخص بفلسفته الأخلاقية والدينية . وهو يرى
أن مهمة الفلسفة يكفى فيها أن يدرك الفيلسوف أن موضوع بحثه — سواء
أكان في العلوم الطبيعية أم في التاريخ أم في الدين — إنما هو في نهاية
الأمر حقيقة يُسكّم بوجودها ، لا حقيقة تفسر تفسيراً يكون من شأنه أن

(١) ألفرد إدوارد تيلور عالم إنجليزي معاصر ومن أكبر النفقات في العصر
الحاضر في الفلسفة اليونانية القديمة ، لا سيما ما يتصل منها بأفلاطون وأرسطو . درس
الفلسفة واللغات القديمة في جامعة أكسفورد ، وعالج تدريس هاتين المادتين في معاهد
علمية كثيرة حتى عين أستاذاً للفلسفة في جامعة أدنبره سنة ١٩٢٤ . له تأليف كثيرة
في الفلسفة اليونانية القديمة وتاريخها وفي الأخلاق ومقالات فلسفية عديدة في أمهات
المجلات الفلسفية ، ودوائر المعارف البريطانية . (المترجم)

يذهب بمعناها . بل الواقع أن « تيلور » يشك كل الشك في صحة أى مذهب فلسفى يحاول تفسير كل شىء من غير أن يترك سراً من الأسرار عن أصل الموجودات غامضاً لا يفسره .

أما فلسفته الخاصة فهى سعى إلى التوفيق بين المطالب الضرورية للتفكير العلمى ، وبين ما تطلبه الحياة الخلقية والدينية ، فإن الحياة الخلقية تفترض « الاختيار » والحزبية فى الإنسان ، كما تفترض الإمكان الصرف فى الحوادث الطبيعية . وهذا فرض لا يناقض المبادئ العلمية ، لأن العلوم نفسها تسلم بمبدأ الإمكان الصرف فى الطبيعة . فلا ضرورة مثلاً تقضى بوجود وجود النظام الطبيعى القائم دون غيره . ويقول « تيلور » إنه ليس هناك من سبب يحملنا على افتراض أن متعلق الشعور الدينى أقل حقيقة من متعلق أى شعور إنسانى آخر . وحقيقة الشعور الدينى وحدها دليل على وجود متعلق ذلك الشعور . « إن الخير المحض (الله) والمستحق للعبادة على الإطلاق لم يدع قلبنا غفلاً من آية تدل عليه ؛ من أجل ذلك نشعر بالافتقار إلى معبود ما ؛ فنتمسك بعبادة الأشجار ، والأنهار ، والحيوان ، والجبابرة من الرجال ، والأصنام المصنوعة على مثال الإنسان ، ثم نرقى آخر الأمر إلى عبادة معبود نجد فى عبادتنا إياه الطمأنينة والاستقرار ، لأن من استكمل شرائط الربوبية الحقة يثبت عبده على عبادته ويحفظها عليه » . من هذا نرى أن مذهب « تيلور » صريح فى التأليه ، وجملة القول فيه أن « للمبدأ الأول » الذى تستند إليه الموجودات جميعها حقيقة عليا واحدة ، منها يستمد كل ما عداها وجوده .

وأعم صفات هذه الحقيقة أن وجودها تام أو كامل في ذاته ، وأنها مستوفية شرائط كمال الربوبية . أما تصورها فلا وسيلة أقرب إليه من تخيلها على مثال النفس الإنسانية في أرقى مراتب كمالها .

ثم إن « تيلور » يعتقد أن رقى النفس الإنسانية رقى أخلاقياً حقيقياً يقضى بافتراض وجود الزمان وجوداً حقيقياً ، وكذلك بافتراض وجود علة تصدر عنها الأفعال ، وإرادة حرة ، وذات أو شخصية متصلة الوجود . والحياة الخلقية في نظره حياة نزاع بين الحادث والقديم ؛ فلا وجود لها في موجود قارٍ على حالة واحدة ، ولا في موجود دائم التغير ؛ بل في موجود يجمع بين الحالين في آن واحد ، وهي حياة جهاد حقيقي ينتدى من الطبيعة وينتهي إلى ما هو فوق الطبيعة . أما الوصول إلى المقام الذي نشعر فيه بتمام وحدتنا الذاتية الكاملة ، فلا طريق إليه إلا أن نرى أن خيرنا الأعظم إنما هو في الله الذي هو جماع الخيرات كلها وأصلها .

فالأخلاقية إذن — في نظر « تيلور » — تتضمن شيئين : أولهما أنها تدل على وجود الله من حيث ما هو خير محض ، ومنبع تفيض عنه الخيرات كلها ، وثانيهما أنها تدل على خلود الإنسان الكامل الذي يجعل الغاية من حياته جنى ثمرة الخير . وبهذا ينتهى « تيلور » من فلسفته إلى المبحث الإلهي الذي لا شك منه ابتداءً . ونحن نتبين في مذهبه ثلاثة أصول دينية متعلقة بالله ، وهي :

أولاً — أن الله تعالى هو الخالق للكون والغادي ، أو المخلص لعباده ، والمطهر من الذنوب والآثام .

ثانياً — أنه المحب لخلقه .

ثالثاً — أن الحياة الإلهية في جوهرها فعل اتصال من الذات إلى الذات (وهذا معنى العقيدة الأرثوذكسية للتثليث) .

ولم يقف « تيلور » عند هذا الحد ، بل جرؤ على أن تنبأ بمصير الحياة الإنسانية في الآخرة ، بعد الحياة الدنيا التي هي حياة بلاء واختبار ، فقال إن في الآخرة يقف التكوين الخلقى في الإنسان ، وتبقى الأفعال التي هي وليدة الأخلاق

(١٩) لصكي N. O. Lossky وُلد سنة ١٨٧٠

يذهب هذا الفيلسوف الروسي في نظريته في المعرفة مذهب الذوقيين (Intuitionists) ، وفي نظريته في الوجود مذهب الروحانيين . أما عن الأولى فيقول إن أساس المعرفة كلها هو الذوق المباشر فنحن ندرك أعيان الموجودات إدراكاً مباشراً من غير استعانة بوساطة صور ذهنية ؛ ولكن هذه الأعيان تتجاوز بعد ذلك الإدراك العقل المدرك لها ، أي أنها تتجاوز الشعور الذي يدركها إدراكاً ذوقياً ؛ فإن الإدراك الذوقى نفسه ليس بعلم ؛ لأن الأشياء ولو أنها تدخل إلى حياتنا العقلية كاملة مزودة بكل ما فيها من العلاقات والنسب التي تربط بعضها ببعض ، وتربطها بسائر العالم ، إلا أن العقل المدرك لها لا بد له من أن يستخدم قواه في التمييز والتأليف بين أجزائها لكي يتمكن من تفسيرها تفسيراً صحيحاً . فلا يحصل العلم إلا بعد هذا الدور . غير أن العقل لا يخلق أعيان الموجودات

ولا يركبها ، كما أنه لا يخلق النسب التي بينها ، ولكن وظيفته قاصرة على تأويلها وتفسيرها . فمعرفةنا بالأشياء إذن إنما هي بمثابة المرآة تنعكس على صفحاتها الحقائق العينية في الكون والنسب المنتظمة التي ترتبط بها تلك الحقائق .

وليست الرابطة بين العقل المدرك والأشياء المدركة إدراكاً ذوقياً نتيجة لأي تأثير على العقل آت من جانب الأعيان المدركة ، ولكنها ترجع إلى نسبة ثابتة بين الإثنين (العقل والأشياء المعقولة) تتعين بها المعرفة ؛ بل ربما يرجع هذا الارتباط إلى نوع من الانسجام المستقر في طبيعتهما ، أو إلى استعداد من الجانبين — العقول الشاعرة ، والأشياء التي تدركها ، أما فيما يتعلق بماهية المادة فيميل « لصكي » إلى الرأي القائل بأن المادة (أو الذرات) حالات أو أحداث ناشئة عن عمليتي الجذب والدفع ، ولكنه يعتقد أن الظواهر مجال لقوى كامنة في جواهرها كلها روحية ، وإن كانت الحياة الشعورية الكاملة لا وجود لها إلا في بعضها . فالظواهر الطبيعية إذن ليست ألبتة ميكانيكية بحتة ، ولكنها دائماً ظواهر « نفسية — طبيعية » معاً ، ويلزم من هذا أنها غائية ، وإن كانت الغاية منها لا تُدرك دائماً . ويتبع « لصكي » كلا من أرسطاطاليس ، ودريش (Driesch) في افتراض وجود « صورة » (entelechy)^(١) تفسر

(١) entelechy معناها في فلسفة أرسطو الفعل actuality أو الصورة — وكل موجود في نظره له ناحيتان : ناحية الفعل التي بها الشيء ما هو وناحية القوة التي يمكن أن يصير بها الشيء شيئاً آخر . (المترجم)

لنا خصائص الكائنات العضوية وأفعالها ، ولكنه لا يعتقد أن مبدأ الحياة قوة من القوى ، بل جوهر له قوة على الخلق تصدر عنه قوانينه ، لا كأنه يخضع للقوانين . والعالم كله في نظره على هذا النحو ؛ فإنه يقول إن العالم نظام أو كل مركب من أجزاء ، ولكنه كل سابق لأجزائه بحيث تظهر تلك الأجزاء وتبقى موجودة في داخل الكل . « وليست وحدة العالم المعقول وحدة وظيفية لمعان مجردة ؛ بل هي مجموعة من الموجودات ذات حياة أبدية » . ولكن هذا « الكل » للمركب لا يمكن أن يقوم بذاته ؛ بل لا بد له من مبدأ أعلى منه يقوّمه . لهذا نرى أن القول بوحدة العالم قد دفع بلصكي إلى القول بوجود مبدأ فوق العالم ؛ أو بوجود « المطلق » الذي هو أصل لسكثرة من الجواهر لها من الوحدة وشدة الارتباط ما ليس للوحدة المعقولة التي للعالم ، ولكنها مع ذلك تظل حرة مطلقة الإرادة في أفعالها . بهذه الطريقة قد وجد « لصكي » أساساً فلسفياً لمذهب التاليم ، أو للتالوجيا المسيحية في فلسفته التي يصفها بأنها مذهب مثالي واقعي يقول بالتركيب في الكون والتماسك بين أجزائه ، وهو على ما يظهر ، مذهب يتذبذب بين مذهب الكثرة الروحية ، والمذهب « المثالي المطلق » .

الفصل السابع

مذهب التجريد الجبريد

الفلسفة السكنتية الجبريدة وفلسفة الظواهر في ألمانيا

(٢٠) ليمان^(١) O. Liebmann ١٨٤٠ - ١٩١٢

إلى « ليمان » يرجع الفضل الأكبر في الحركة الفلسفية الألمانية التي اتخذ أهلها شعاراً لهم العبارة المشهورة « ارجعوا إلى كنت » والتي عرفت من أجل هذا بالفلسفة « السكنتية الجديدة »^(٢) . وقد حاول « ليمان » أن يظهر أن كلا من نخت وشلنج وهربارت وشوبنهاور وغيرهم قد أساءوا في الحقيقة تمثيل فلسفة كنت في مذاهبهم الفلسفية ، وحرّفوا وجهة نظره على الرغم من ادعائهم أنهم خلفاؤه ، فإنهم جعلوا ما يسميه

(١) أوتو ليمان فيلسوف ألماني ولد في لوتنبيرج بسيليزيا وتوفي فيينا سنة ١٩١٢ : كان أستاذاً للفلسفة في جامعة استراسبورج سنة ١٨٦٦ وبيينا سنة ١٨٨٢ . انتصر للفلسفة السكنتية وحاول إحياءها على أصولها الحقيقية وله مؤلفات كثيرة قيمة معظمها في الأخلاق وما بعد الطبيعة والفلسفة النقدية (الترجم)

(٢) وهي الحركة الفلسفية التي ابتدأت في ألمانيا حوالي سنة ١٨٦٠ ، وكان أول مسألة عاجلها الفلاسفة الألمان الذين قاموا بها مسألة « المعرفة » التي بحثوها على ضوء نظريات كنت ولسكنهم سرعان ما تناولوا سائر فروع الفلسفة بالطريقة عينها . ومن أشهر الفلاسفة المؤسسين لهذه الحركة هلهولتز وهرمان كوهن وبول فآورب ووللم وندلباند وهنريخ ركرت (الترجم)

كُنْتُ « بالشئ في ذاته » (أو « المطلق » الخ) محوراً تدور عليه فلسفتهم ،
على حين أن فكرة « الشئ في ذاته » لم تلعب مثل هذا الدور في فلسفة
كُنْتُ نفسه . بل إن كُنْتُ كان يعتبر المعرفة بكل أنواعها محصورة في
دائرة العلاقات والنسب بين الأشياء وقاصرة عليها ، وأنها لا يمكنها
الوصول إلى « الشئ في ذاته » أو « المطلق » . وقد وجه « ليمان »
مثل هذا النقد إلى النزعات التجريبية والوضعية في الفلسفة ؛ فإن مادة
الحس التي يعتبرها الوضعيون حقائق أولية لا نزاع فيها ، ليست أعياناً
موضوعية بحتة لها وجود في العالم الخارجي ؛ بل إن العقل وما فيه من
معان كلية يؤثر فيها ويطبعمها بطابعه الخاص . فلا سبيل لنا إذن إلى
معرفة مادة بحتة يقع عليها الحس ، ولا إلى معرفة عين من الأعيان ، ولا
حقيقة من الحقائق ما دامت لا تتصل بتلك المعاني المعقولة ؛ فهي بعيدة
عن معرفتنا بعد « الشئ في ذاته » عنها . كما أنه لا وجود « لتجربة »
بحتة بالمعنى الذي يستعمل فيه « ميل » هذه الكلمة ؛ فإن كل تجربة
— أو كل معرفة تستند إلى التجربة — متأثرة ببعض المبادئ العقلية
التي بواسطتها نحاول تفسير الظواهر الطبيعية . وقد ذكر « ليمان » أربعة
من هذه المبادئ : وهي مبدأ الذاتية الحقيقية ، ومبدأ الاتصال في الوجود ،
ومبدأ مطابقة القانون ، ومبدأ اتصال الحوادث . ومن هذه المبادئ
الأربعة مجتمعة يتألف منطق الحقائق الذي لا بد لجميع الأبحاث العلمية
من استخدامه باعتباره آلة منظمة وضابطة ، لا باعتباره قانوناً ثابتاً غير
قابل للمناقشة .

(٢١) كوهن^(١) H. Cohen ١٨٤٢ - ١٩١٨

كان « كوهن » في طليعة أصحاب الفلسفة « الكنتية الجديدة » ، وكان أول من شرح فلسفة كنت شرحاً مستفيضاً ، وتناولها بالنقد والتفسير معتبراً « طريقة التجريد » فيها أهم مميزاتهما . ومن رأى « كوهن » أن من الضروري أن تبدأ الفظريات التي تبحث في المعرفة بالعلوم المضبوطة المحدودة ، أي العلوم الرياضية ؛ فإن « كنت » كان يذكر دائماً العلم الذي امتاز به « نيوتن » ، وكان كلما أراد أن يسلك بالفلسفة في الطريق العلمية المأمونة ، قاس القيمة العلمية لبحثه الفلسفي بمقدار ما تضمنه من الرياضة . أما « كوهن » فيرى أن من وظيفة الفلسفة أن تختبر صحة الأفكار والمبادئ* -- أو شروط صحة الأفكار والمبادئ* -- التي تعتبرها العلوم المضبوطة ، أو علوم الرياضة التطبيقية ، حقائق أساسية لها . ولهذا وجه عنايته الخاصة لبحث المفاهيم الأولية في العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية الرياضية ، وبشكل أخص لبحث طريقة الكميات اللامتناهية في الصفر^(٢) . وقد حاول أن يبين أن فكرة الكمية اللامتناهية في

(١) هرمن كوهن : فيلسوف ألماني إسرائيلي ، ولد في كزفنج في ٤ يونيو سنة ١٨٤٢ ، وتوفي في برلين في ٤ أبريل سنة ١٩١٨ . يشبه ليهان في أنه من مؤسسي المدرسة الكنتية الجديدة ، وقد توسع في فلسفة كنت ، فوضع مثاليته على أساس منطقي . اشتغل بمهنة التدريس في جزء من حياته (المترجم)

(٢) infinitesimals : ويعرفون الكمية اللامتناهية في الصفر في الرياضة بأنها الكمية التي تعتبر دائماً أصغر من أي كمية أخرى نضع لها قيمة معينة ، فهي لهذا السبب غير محدودة المقدار . (المترجم)

الصفر - كما يستعملها نيوتن وليبنتز هي في الواقع الأداة العقابية الأساسية في دراسة حقيقة الكون دراسة علمية . ويقول كوهن إن « الحقيقة » لا تُعطى ألبتة مجردة . فلا يُعتر عليها في الإدراك الحسي ، ولا في الإدراك « الذوقي » ، ولكن العقل يولدها دائماً بطرق مختلفة . ووظيفة المنطق إنما هي البحث في هذه الطرق المختلفة التي بواسطتها يولد العقل الأشياء . ويظهر فضل كُنت في نظر « كوهن » في أنه كان أول من بحث في « منطق أصل الموجودات » عوضاً عن منطق المتقدمين الذي يبحث في أعيان وصور الموجودات يفترض وجودها بالفعل . وقد أخذ كوهن على عاتقه مهمة تكميم هذا النوع من المنطق « منطق الأصل » لكي يبين كيف يولد الفكر الموضوعات الحقيقية للعلوم الرياضية والطبيعية الرياضية فمن وجه إذن ، يمكننا القول بأن « كوهن » أراد أن يغفل تعاليم « كُنت » فيما يسميه علم الجمال التجريدي ، وأن يبدأ بالمنطق التجريدي من غير التجاه إلى افتراض وجود مادة للحس ، معتبراً بذلك الفكر والحقيقة شيئاً واحداً . ومن هنا صح أن توصف فلسفة كوهن بأنها فلسفة (مثالية منطقية) .

(٢٢) ونرلباندر^(١) W. Windelband ١٨٤٨ - ١٩١٥

حاول « وِنْدِلْبَانْد » أن يبعد الفلسفة عن أن تتحيز إلى جهة واحدة

(١) ولهم وندلباندر . فيلسوف ألماني من طبقة كوهن وليبان وغيرهما من مؤسسي « المدرسة الكنتية الجديدة » ، ومن آثاره في الفلسفة أيضاً أنه اعتبر مبعث =

دون غيرها بأن تبالغ في العناية ببحث العلوم الطبيعية وتفغل الدراسات التاريخية التي تبحث في النواحي المختلفة للحضارة الإنسانية . وقد كان الفيلسوف « كُنت » قد شجع إلى حد ما ، الميل إلى هذا النوع من التحيز ، بأن اتخذ العلوم الرياضية ، والرياضية التطبيقية أساساً لنظريته في المعرفة ؛ وكان هذا العلماء على عهد كُنت أخص الدراسات العلمية . أما التاريخ فكان يُدخَل في عداد الأدبيات النسائية ، وكان القائمون عليه من طبقة الأدباء . غير أن الحال قد تحولت منذ زمن كُنت فأصبح التاريخ اليوم يدرس بطريقة موضوعية أو علمية ، كما أصبح علماء من العلوم التجريبية .

وربما كان اختلاف التاريخ عن العلوم مما يعين الباحث في دراسته للمسائل الفلسفية ، لأن العلوم دراسات لقوانين ، بمعنى أن أكبرهما كشف القوانين الطبيعية أو الاطرادات في وقوع الحوادث ؛ ولهذا كانت أحكامها أحكاماً عامة مجردة . وهي تبحث في الأنواع والأجناس لا في الأفراد من حيث هي أفراد ، بل من حيث أنها أمثلة لأنواعها . أما التاريخ فعلم يصف الفرد ، بمعنى أن وظيفته البحث في الأفراد الإنسانية والحوادث التاريخية الفردية وجميع خصائصها . فعلمنا إذن بتاريخ الأفراد والحوادث التاريخية الواقعة في الزمان أولى بعنايتنا وأحق من علمنا بالقوانين العلمية العامة الخارجة عن حدود الزمان . لأن الأولى تعيننا

= المعرفة من مباحث القيم ؛ وأنه رأى أنه علم يبحث لا في المعرفة الإنسانية من حيث هي بل فيما ينبغي أن تكون عليه القوانين الصحيحة التي يتوصل بها إلى معرفة الحقيقة .
(المترجم)

على فهم معضلاتنا الأساسية أكثر من الثانية . نعم قد يقال أحياناً إن المؤرخ في حاجة إلى الاستعانة بعلم النفس وهو علم طبيعي ، ولكن علم النفس الذي يحتاج إليه المؤرخ ليس علم النفس العلمي الذي تتألف قواعده من أحكام عامة مجردة ، بل العلم العملي الذي يساعد على فهم الرجال بطريق الفراسة وعلى معرفة طبائعهم وسبر أخلاقهم ؛ وليس هذا النوع من علم النفس « علماً » بل هو فن لا يمكن تعليمه ولا تعلمه .

ففتح إذن أحوج إلى معرفة ما هو خاص أو فردي ، في دراستنا لميول الناس وتقديرهم لقيم الأشياء والأفعال ، منا إلى معرفة ما هو عام أو كلي ، فإن الوجدان تقل حدته مع التكرار . ولكن التاريخ لا يبحث في الحوادث المتغيرة الواقعة في الزمان فحسب ؛ بل يبحث كذلك في الحقائق الخالدة . نعم ، إن مهمته الأولى هي دراسة الأطوار المتتالية التي شهدتها الحضارة الإنسانية في سبيل تطورها وتقدمها ، ولكنه من ناحية أخرى يُعنى بدراسة المثل العليا للثقافة الإنسانية . وهذه المثل يتألف منها مجتمعة عالم من المثل الخالدة ؛ فإن الاعتقاد العام بصحتها يقتضى بالضرورة « وجود عقل كلي » . وتتحقق هذه القيم الخالدة ، المنطقية والخلقية والجمالية في التاريخ عند ما يدب الشعور بها في النفوس الإنسانية فتتخذها قوانين أو مبادئ ترشدها في سلوكها . ولا يتناقض اتباع هذه القوانين — أو هذه المثل العليا — مع القوانين الفطرية للعقل في شيء . فإن قوانين المثل العليا تؤثر فينا تأثيراً نفسياً عميقاً بمجرد إدراكنا لصدقها وقيمتها . ويصدق هذا القول أيضاً في شعورنا بالتبعة أو المسؤولية .

ومن هنا يتبين أن التربية — بما فيها تهذيب المرء نفسه — أمر ممكن ،
لا على الرغم من القوانين الطبيعية ، بل بواسطةها .

والآن ننتقل إلى مسألة الخلود ووجود الله . يتحدثى وندلباند
« الأخلاقية » التي يدافع عنها « كنت » في مذهبه الأخلاقي ، ويقول :
هل من الأخلاقية أن يشعر الإنسان بضرورة الثواب على الفضيلة ؟ نعم
قد لا يدخر الإنسان وسعاً في أن يُحَقِّقَ الخير ؛ وبهذا يكتسب نوعاً من
الخلود ، لأنه بفعله هذا يشاطر في تحقيق بعض المثل العليا الدائمة ،
ولكن ليس هذا ما يعنيه الناس عادة بالخلود . على أن وجهة النظر
الحديثة التي تعتبر الروح وظيفة لا جوهرأ ، لا تجعل هذا الخلود الفردي
أمراً ممكناً ؛ كما أن الأخذ بنظرية « الموازنة بين النفس والجسم »
برمتها ، لا يدع أساساً للاعتقاد بإمكان خلود الروح بعد فناء البدن .
ويجد « وندلباند » من الصعوبة بمكان أن يوفق بين وجود الله ووجود
الشر في العالم ، كما يجد عالم الواقع ، وعالم المثل العليا الدائمة — أي ماهو
موجود بالفعل وما ينبغي أن يوجد — على طرفي نقيض ؛ لا على أنهما
في عزلة تامة الواحد عن الآخر ، فإن الأول يتطلع دائماً إلى الثاني ،
ولكن لأن عالم الواقع فيه — على ما يظهر — كثير مما يتعارض مع
روح المثل العليا أو لا يقيم لها وزناً ، ووجود عالمين من هذا القبيل
لا يتفق مع الاعتقاد بوجود الله — حتى ولو فهم الإنسان الألوهية
على أنها عالم المثل العليا الدائمة . ولكن « وندلباند » من ناحية أخرى
يرى أن الاعتقاد بوجود عالمين من هذا القبيل باعث يحرك الإنسان إلى

السعى والعمل . فإنه لو كان الوجود بالفعل كاملاً ، والكامل موجوداً بالفعل ، لما وجد الإنسان شيئاً يسمى إلى تحقيقه .

(٢٣) أَيْكِن^(١) R. Eucken ١٨٤٦ — ١٩٢٩

كان « أَيْكِن » من الدعاة إلى فكرة الحياة الروحية وكان لدعوته أثر كبير . وقد وضع في الدفاع عنها فلسفة يغلب عليها الصبغة اللاهوتية ، أو بالأحرى الصبغة المسيحية ، بالرغم من أنه كان ينكر بعض الأصول الهامة في العقيدة المسيحية ، وأعلى الحقائق في نظر « أَيْكِن » حياة روحية أو روح حية فوق طور الطبيعة من جهة ، ولسكنها من جهة أخرى تتخلل الطبيعة على هيئة تجعلها برزخاً موصلاً إليها . وليست هذه الحياة الروحية التي يتكلم عنها « أَيْكِن » شيئاً موجوداً بالفعل ، بل هي حركة دائمة متجهة بلا انقطاع نحو حياة روحية أعظم وأعمق . وربما يتاح للإنسان معرفة هذه الحياة بنوع من العلم الذوقى الصوفى ، بل إن في استطاعة الإنسان أن يكون عاملاً من العوامل في رقيها ؛ فإن كل إلهام علمي أو فني أو ديني أو ما شا كل ذلك ، نتيجة من نتائج اتصال الإنسان بهذه الحياة الروحية ودليل على أن له نصيباً منها . فالحق مثلاً ليس من خالق

(١) رودلف أَيْكِن : فيلسوف ألماني كان أستاذاً في جامعة برلين سنة ١٨٧١ ، ثم في جامعة ينا سنة ١٨٧٤ وبها استقر حتى آخر حياته . كان « أَيْكِن » أحد كبار المفكرين الذين ظهروا في الحركة التي أعقبت الحركة العلمية الطبيعية المتطرفة التي سادت في ألمانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان يعد نفسه مسيحياً على الرغم من عدم انتسابه لكنيسة من الكنائس . وقد صرف عنايته بنوع خاص إلى البحث في المسائل الأخلاقية والدينية .
(المترجم)

الإنسان ، بل هو من العالم الروحي الذي فيه يجده الإنسان . ولو لم يكن للحق هذا الأصل الروحي الذي يصدر عنه لما كان في استطاعتنا أن نُعمل ذلك اليقين الذي نُشعر به إزاء قوة الحق ولا تفانينا في طلبه ؛ فإن الحق مقياس للإنسان ، وليس الإنسان مقياساً للحق . وللحق في العالم الروحي حقيقة وقيمة مستقلة عن الإنسان . وهناك دليل آخر على وجود الحياة الروحية : ذلك أن الناس كثيراً ما يفزعون في أوقات محنتهم وشدائهم إلى ذلك العالم الروحي - أو إلى مملكة السماء . ولكن الأخذ بنصيب حقيقي من العالم الروحي لا يقتصر على مجرد التأمل والتفكير ، بل يتطلب عملاً أخلاقياً صادقاً . فإن الكمال الخلقى جوهر الروح ، والروح جماع المثل العليا . فلا يجوز إذن الخط من شأن الطبيعة ، فإن الطبيعة ، تنطوي على كثير من العقل ؛ يدل على ذلك ما للظواهر الطبيعية من قوانين وما بينها من علاقات ونسب ، كما يدل عليه تطور الكائنات الطبيعية تطوراً مطرداً نحو الكمال ، بل الحقيقة أن العقل الإنساني نفسه وليد الطبيعة . ومع ذلك فالطبيعة تقصر دون الوصول إلى الروح ؛ وليست - في أعلى مراتبها - سوى طور أوّلى موصل إلى الحياة الروحية ، فإن الحياة الروحية ليست وليدة الطبيعة ، بل هي الأصل الذي تستند إليه الطبيعة ، والغاية التي تسمى إليها . لهذا نجد « أيكن » - بالرغم من عظيم تقديره للعلوم وما أحرزته من انتصارات باهرة - يقول : إن التاريخ وما فيه من قصص عظماء الرجال - وليس العلم - هو الذي يُقرّبنا غاية القرب من ذلك العالم الروحي . ويزيد على ذلك بقوله :

إن المناهج العلمية التي تتخذ العقل رائداً لها - بعبارة أخرى مناهج البحث النظري - لا تكفي في تحصيل المعرفة بالعالم الروحي بالرغم من صلاحيتها للتوصيل إلى معرفة الظواهر الطبيعية . فلا بد إذن للوصول إلى الغرض الأول من منهج آخر : وذلك هو الذي يسميه «أيكن» «بالطريقة النولوجية»^(١) ، وهو يعنى بها نوعاً من المعرفة الذوقية التصوفية التي بها تتغلغل الشخصية الإنسانية بأكملها (لا العقل وحده) في الحياة الروحية تغلغلاً يملك عليها مشاعرهما وتمس به كل جارحة من جوارحها .

ويصف «أيكن» هذه الروح أو هذه الحياة الروحية أحياناً بلغة أصحاب مذهب «وحدة الوجود» ولكنه ، غالباً ما ينعتمها بأوصاف ذاتية تنطبق على الله كما يتصوره المؤلهون .

وقف «أيكن» من الفلسفة والدين هذا الموقف ، وبه أراد أن يوقظ أهل عصره ويلفت أنظارهم إلى سطحية الثقافة المادية التي غلبت عليهم ، ويدفع بهم إلى السعى وراء حياة روحية أعمق وأعظم . فالحياة الإنسانية حياة وهم وغرور ، خلو من كل معنى وكل حقيقة ، إذا لم يتداركها الدين فيرتقى بها إلى مستوى عالم آخر ، هو مستوى الحياة الروحية .

(١) المعنى الحرفي لكلمة Noology علم العقل أو علم ظواهر العقل ، ولذلك يطلقها بعض الكتاب على علم النفس Psychology . ولكنها تستعمل بمعنى اصطلاحى خاص للدلالة على فرع الفلسفة الذى يبحث فى الحقائق العقلية التى تدرك عن طريق البديهية والذوق ، بمقابلتها بالحقائق التى يصل إليها العقل بواسطة النظر والبرهان . أما العلم الذى يبحث فى هذا النوع الأخير من المعرفة فيسمى Dianoiology ولكنها كلمة لم يجز بها الاستعمال
(المترجم)

(٢٤) هوسرل^(١) E. Husserl ولد سنة ١٨٥٩

يعد « هُصِرْل » زعيم الحركة الفلسفية المعروفة باسم « الفينومينولوجيا »^(٢) أو البحث في الظواهر . (ويجب أن نفرق بين الفينومينولوجيا والفينومينالزم : مذهب القائلين بالظواهر) . والبحث في ظواهر الأشياء أسلوب من أساليب البحث في المعرفة ، ويمكن الرجوع به إلى فلاسفة آخرين غير « هوسرل » من فلاسفة القرن التاسع عشر وخاصة إلى برنتانو (١٨٣٨ - ١٩١٧) وميننغ (ولد سنة ١٨٥٣) ؛

(١) إدموند هوسرل : فيلسوف ألماني ولد في بروسترف في إبريل سنة ١٨٥٩ ودرس الرياضيات والعلوم الطبيعية ثم الفلسفة وعين أستاذاً بجامعة هل سنة ١٩٠٦ . وله كتاب في فلسفة الرياضيات وآخر في المنطق فتح بهما طريقاً جديدة في البحث في الفلسفة الحديثة ، ودافع في الأخير منهما عن وجهة نظره في علم المنطق الذي يعتبر قواعده أولية مجردة مستقلة عن قواعد علم النفس (المترجم)

(٢) Phenomenology : والمعنى الحرفي لهذه الكلمة البحث في الظواهر ، والمعنى الاصطلاحي البحث الوصفي لطائفة من ظواهر الأشياء — مع مراعاة التطور التدريجي لها — بقطع النظر عن القوانين العامة التي تخضع لها هذه الظواهر ، وعن الحقائق التي هذه الظواهر ظواهر لها . بعبارة أخرى حصر الذهن في كل ما هو واقع في الزمان أو المكان أو في كليهما . أما الفينومينالزم Phenomenalism فتستعمل بمعنىين مختلفين : الأول بمعنى النظرية القائلة بأن علمنا بالأشياء قاصر على معرفة ظواهرها دون حقائقها أي دون الأشياء ذاتها . الثاني بمعنى النظرية القائلة بأن كل ما نعلمه ظواهر ، وأن الظواهر هي كل شيء في الوجود . ومعنى الظاهرة في هذه النظرية الحقيقة الماثلة أمام العقل ، إما مباشرة أو بطريق الاستنتاج ؛ وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى للكلام عن « الأشياء في ذاتها » أي عن وجود شيء لا علاقة له بالعقل . والفرق بين النظريتين أن الأولى لا تنكر الأشياء في ذاتها وإن كانت تنكر مقدرتنا على العلم بها . أما الثانية فتنكر الاثنين . والاصطلاحان غير شائعين في الفلسفة ، ويمكن ترجمة الأولى « يبحث ظواهر الأشياء » ؛ والثانية « بمذهب القائلين بالظواهر » (المترجم)

فقد نبّه « برنتانو » في كتابه « علم النفس التجريبي » الذي نشر سنة ١٨٧٤ إلى خاصية « الإشارة » التي للعمليات العقلية (أو خاصية « دلالة » العمليات العقلية كما يسميها المدرسيون) ، فإن جميع العمليات العقلية تشير إلى موضوع ما ، سواء أكان ذلك الموضوع أسراً حقيقياً أم وهمياً ، وسواء أكانت العملية العقلية عملية إدراك حسي أم عملية تخيل أم حكم أم رغبة أم حب أم كراهية . فإنه يوجد على الدوام « شيء ما » ندركه أو نتخيله أو نحكم عليه الخ . وقد اتخذ « ميئنغ » هذه الفكرة أساساً لبحث « الموضوعات من حيث هي » (gegenstandtheorie) بقصد تحديد الصفات الأولية لهذه الموضوعات مع عدم النظر إلى الحالات النفسية التي هي موضوعات لها ، وبقطع النظر حتى عن وجود هذه الموضوعات نفسها . أما « بحث الظواهر » الذي قام به « هسرل » فليس في الحقيقة سوى تكملة لهذا المنهج من مناهج المعرفة بالأشياء ، وإن كان يمزجه في نهاية الأمر بنظرية مثالية في طبيعة الوجود .

ويتبدى « هسرل » فلسفته بالقول بأن « الشعور » أو « التجربة » أو « الحالة العقلية الإدراكية » بوجه خاص لها طرفان : طرف هو الذات وطرف هو الموضوع (أو العقل والمعقول) . بعبارة أخرى ، يوجد على الدوام شيئان ، حركة عقلية ، وموضوع أو شيء تقع عليه هذه الحركة ، ورابطة ما تربط الإثنين . وللشعور مظاهر مختلفة ، أو عمليات وحركات من أنواع مختلفة (منها الإدراك الحسي والتفكير وتقدير قيم الأشياء إلى غير ذلك) ، واقعة على موضوعات من أنواع مختلفة أيضاً (منها أعيان

الأشياء الموجودة في العالم الخارجي ، ومنها المعقولات والقيم الخ) ...
وتطبق طريقة البحث « الفنومنولوجي » بأن يحرص الإنسان جميع انتباهه
في كل حركة أو عملية عقلية على حدة ، ويشاهد — بنوع من المشاهدة
الباطنية — العملية العقلية وكل ما تحتويه من العناصر ، كما يشاهد
موضوعها والرابطة بينها وبين الموضوع . (بعبارة أخرى يشاهد العاقل
والمعقول معاً) . وهذه حالة تختلف عن حالة الشعور العادية التي يكاد
ينحصر الانتباه فيها في « الموضوع » الذي هو محل الشعور ، كما تختلف
عن طريقة المشاهدة الباطنة المستعملة في علم النفس ، وهي الطريقة التي
يكاد ينحصر انتباه الشخص فيها في ذاته .

وقد كانت الطريقة « الفنومنولوجية » ، في أول أمرها طريقة وصفية
بحتة ، تبتدىء بالتحليل الدقيق من غير أن يعدد المستعمل لها إلى وضع
فروض أو نظريات من أى نوع ؛ بل كان الغرض منها في الحقيقة القيام
بالوظيفة الرئيسية للفلسفة النقدية على وجه أكمل مما قامت به فلسفة
« كُنت » . أما « هُسرل » فأراد أن تكون طريقته « تجريدية »
ومتطرفة . ويظهر للناظر فيها لأول وهلة أنها طريقة فياسوف « واطئ » ؛
فإن « هسرل » يقول مثلاً إن عيان الموجودات الطبيعية (وهي تختلف عن
العمليات العقلية من حيث هي عمليات عقلية ، وتختلف عن المعقولات
الكلية) لا يمكن أن تدرك إلا إدراكاً جزئياً أو أنها تدرك على نحو
ما يدرك الجسم المنظور ، ولهذا تظهر لنا دائماً كأن في ذاتها الحقيقية من
صفات الشئئية أو العينية ما لا ندركه منها في تجربة من تجاربنا . ولكن

سرعان ما يتبين لنا أن « هصرل » أميل في الواقع إلى المذهب المثالي ،
وأنه قد أثرت نظريته المثالية في طريقته « الفنومنولوجية » من أول أمرها .
ويمكن تلخيص النقط الأساسية في مذهب « هصرل » فيما يأتي :
إن الموضوعات التي هي محل بحث العقل ، والعمليات العقلية التي بها
تدرك هذه الموضوعات لا تختلف ، عند النظر فيها ، في نوعها وإن
اختلفت في درجتها ؛ فإن العمليات العقلية نفسها قد تكون موضوعات
لبحث العقل ولا يقل نشاط العقل في عمله في الحالة التي يكون موضوع
ببحثه العقل نفسه أو العمليات العقلية عما إذا كان موضوعه أموراً أخرى .
ولا يعلم العقل من موضوعاته سوى ماهياتها لا إنشئتها : أي أنه لا يدرك
من موضوعاته سوى صفاتها العامة أو ذواتها ، لا صفاتها الخاصة التي
بسببها صارت موجودات جزئية .

فالطريقة « الفنومنولوجية » إذن طريقة بها تدرك ذوات الأشياء
إدراكاً ذوقياً مباشراً . أضف إلى ذلك أن الذوات التي يدركها العقل
ليست عند التحقيق سوى صور لمقولاته الأولية . ويظهر أن « هصرل »
يزعم أن كل وجود هو وجود عقلي ؛ وعلى ذلك فشيئية الأشياء ترجع إلى
وجود نفس أخرى وراء النفس المدركة بالحس . وعلاقة النفس الحسية
بالنفس المجردة أن الأولى إحدى الموضوعات الكثيرة التي تدركها الثانية
والنفس المجردة هي التي تُكوّن كل موضوع من موضوعاتها بحسب
ما فيها من الصور العقلية .

ويختتم « هصرل » فلسفته بقوله : إن النفوس المجردة يتكون من مجموعها
موجود مجرد أعلى ، أو روح شبيهة بما يسميه « هيجل » « بالمطلق » .

(٢٥)

في ذا
« بر
بأسر
وقد
و « ا

سنة
اشتغل
فيلسو

الفصل الثامن

مذهب الحياة

المذهب الجبوى : المذهب العملى : مذهب الذرائع

المذهب الأسطورى (أو فلسفة «اب») فى فرنسا

وألمانيا والولايات المتحدة

(٢٥) برغسون^(١) H. Bergson ولد سنة ١٨٥٩

كان للمذهب الميكانيكى العلمى رد فعل شديد فى فرنسا بلغ نهايته فى ذلك النوع من الفلسفة الذى تمثله فلسفة «برغسون» . وقد قصر «برغسون» همه من فلسفته على الدفاع عن الناحية الروحية من العالم بأسره ، من غير أن يفكر إنكاراً تاماً حقيقة المادة أو القوانين الطبيعية . وقد جعل مفتاح فلسفته المعانى الآتية : «التغير» و«الفعل» و«الحرية» و«التطور الإبداعى» و«الزمان» والإدراك الذوقى ؛ ولذلك توصف

(١) هنرى برغسون فيلسوف فرنسى من أصل يهودى انجليزى ولد فى باريس سنة ١٨٥٩ وتخصص فى العلوم الرياضية والطبيعية قبل أن يتخصص فى الفلسفة . اشتغل بمهنة التدريس كما اشتغل بالسياسة وللشاكل الدولية . ويعتبر اليوم أكبر فيلسوف فى فرنسا . أحرز جائزة نوبل سنة ١٩٢٧ (المترجم)

فلسفته عادة بفلسفة التغيير أو فلسفة التطور الإبداعي . وهو يرى أن الحقيقة في قرارها ليست شيئاً مادياً ولا شيئاً عقلياً ، بل هي شيء أقل تحديداً من الإثنين ، هي شيء تصدر عنه المادة والعقل كلاهما ؛ هي « التغيير » أو هي فيض من الحوادث تظهر في ثناياها الحياة على الدوام لابساً في كل آونة ثوباً جديداً . وليس ذلك الشيء ساكناً غير متحرك ، وإن كان يسميه « برغسون » أحياناً بالدهر أو الزمان الحقيقي . إلا أننا يجب ألا نتصور الدهر في مذهب « برغسون » تصوراً عقلياً بحتاً ، فنفهم منه مجرد لحظات آنية متتابعة ؛ فإنه يعنى بالدهر « مجرى متدفقاً يتصل ماضيه بمستقبله ويزداد ارتفاعاً كلما جد في السير » . وأجلى مظهر للدهر الحياة الإنسانية ، فإن ماضينا يتعقبنا في كل لحظة من لحظات حياتنا . « فكل ما شعرنا به وما فكرنا فيه وما أردناه منذ نعومة أظفارنا لا يزال عالقاً بنفوسنا متجهماً نحو حاضرنا الذي يوشك أن يتصل به وإلا فما نحن في الحقيقة ، وما أخلاقنا إن لم نكن (أو تكن) ذلك الذي تجتمع من تاريخ حياتنا التي حييناها منذ ولادتنا : لا ، بل قبل ولادتنا ؛ فإننا نحمل معنا طبائع أسلافنا ؟ . نعم ، ليس من شك في أن الذي يعيننا على التفكير إنما هو جزء صغير من ماضينا ، ولكن الذي يعيننا على الرغبة أو على الإرادة أو على العمل هو ماضينا بأسره » . هذا هو معنى الدهر (١) أو الزمان الحقيقي الذي نرى فيه الماضي بأسره ممعناً في الحاضر . أضف

(١) ترجمت كلمة « Duration » التي أصل معناها المدة الزمنية بكلمة « الدهر » لأن الظاهر أن برغسون يريد بها هذا المعنى في كتابه « Creative Evolution » . راجع الكتاب ص ٥ . (المترجم)

إلى ذلك أن الدهر بهذا المعنى لا يتضمن تغيراً حقيقياً مستمراً بحسب ، بل يتضمن كذلك شيئاً من الجدة في كل تغير جديد ؛ ولهذا كان لكل تغير لاحقٍ ماضٍ يتخلله أغزر فيما يحمله من التغير الذي سبقه . وعلى هذا فسلسلة التغيرات إنما هي نوع من « التطور الإبداعي » . وليست « الروحية » سوى ذلك النوع من التذكر ، أو ذلك النوع من الفعل المتجمع في مركز واحد ، والذي فيه يتخلل الماضى الحاضر . ولكن قد يتراخى ذلك الفعل أحياناً فتكون نتيجة ذلك التراخى ظهور المادة . ويمكن القول بوجه عام إن العقل أو الشعور حياة باطنية ليس لها ظاهر على حين أن المادة شيء ظاهري ليس فيه حياة باطنية .

يظهر إذن أن الحياة قد اتجهت في تطورها ثلاثة اتجاهات مختلفة مستقلة : الأولى الحياة النباتية ، والثانية الحياة الغريزية ، والثالثة الحياة العقلية (أو الحياة الناطقة) . فالغريزة هي القوة التي تستخدم أعضاء الجسم ، وهي نوع من المهارة العملية اللاشعورية . أما الذكاء فهو قوة بها تُصنع وتُستخدم الآلات غير العضوية ، وبواسطته يدرك الإنسان العلاقات بين الأشياء عندما يصل الذكاء فيه إلى درجة معينة من الرقى . والذكاء (لأن وظيفته الأولى صنع الآلات غير العضوية) أميل إلى اعتبار السكون مؤلفاً من مادة جامدة ؛ ومن هنا ظهرت النزعة العلمية التي يحاول أصحابها شرح جميع الكائنات شرحاً آلياً ، وهو خطأ يجب أن يصلحه الإدراك البديهي الذي هو نوع من الإدراك كان في أصله غريزة ثم وصل إلى درجة الشعور الذاتى وأصبح قادراً على تعقل موضوعاته .

فالدكاء والإدراك البديهي إذن يجب أن يتضامنا في العمل لكي نتحاشى
الوقوع في الميكانيكية البحتة من جهة ، أو الوقوع في التصوف البحت
من جهة أخرى .

ويعتقد « برغسون » أن الحياة الشعورية ، أو الحياة الروحية ، متمثلة
في التذكر لا في الإدراك الحسي ؛ فإن الإدراك الحسي حركة بدء أو حركة
بروز وظهور ، وليست « شعوراً » مطلقاً . ومن قال بعكس ذلك من
المفكرين فقد خلط بين التذكر والإدراك الحسي . وهذا يوضح أن الروح
قد تعتمد على الجسم ، ولكن يظل كل منهما مخالفاً للآخر متميزاً عنه .
ومهما قويت الرابطة بين العقل والجسم ، أو بينه وبين المخ ، فإنهما
لا يزالان شيئين مختلفين ، إذ العقل ليس مجرد وظيفة من وظائف المخ
ولا ظاهرة عارضة تعرض له ، ولكن المخ أداة يستخدمها العقل . وفي
هذا المعنى يقول « برغسون » : « قد تكون العلاقة وثيقة بين المعطف
والمسار الذي يعلق عليه المعطف ، لأن المعطف يسقط إلى الأرض لو انتزع
المسار من مكانه : فهل لنا أن نقول إذن إن شكل المسار له أثر في تحديد
شكل المعطف ، أو أن بين شكليهما اتفاقاً من أي وجه من الوجوه ؟ »
إن العمليات الخفية أو الظواهر الخفية ليس لها من الأثر في تحديد الظواهر
النفسية بأكثر مما لشكل المسار من أثر في تحديد شكل المعطف . والعقل
بطبيعته حرٌّ ، بمعنى أن له القدرة على الفعل ، فليست أفعاله إذن آلية .
والتسليم بأن ماضينا له أثر في حاضرنا لا يمنع من القول بحريتنا العقلية
أو باختيارنا ، فإن الحرية معناها القدرة على التعبير عما في النفس . أو هي

حكم

نظرة

إلى

خاص

عوا

« إن

أن

الحية

بالتظ

إلى

إلا

الحية

والذ

نبيد

أن

الحية

حكم النفس . والفعل حر بهذا المعنى إذا أتى معبراً عما عليه المرء في نفسه .
أما المادة فلا يصفها « برغسون » بصفات كلها شر محض . وهي في
نظره مبدأ التعدد أو الكثرة في الأفراد ، إذ بواسطتها ينقسم مجرى الحياة
إلى أقسام (أفراد) مختلفة مستقلة الواحد عن الآخر لكل منها شخصية
خاصة به . زد على ذلك أن نفس العوائق التي منشأها المادة عامل من
عوامل ازدياد الفعل قوةً وشدةً ، وهذا هو معنى الحياة . يقول « برغسون » :
« إن المادة بفضل ما فيها من المقاومة ، ولما نصِّفها به من القابلية استجقت
أن يقال فيها إنها عائق وأداة ودافع أو محرك في آن واحد » . ومن طبيعة
الحياة أنها تحتفظ دائماً بوحدتها ، وأن كل جزء من أجزائها يعمل
بالتضامن مع الأجزاء الأخرى . وهذا التضامن يحفظها من فوضى الانحلال
إلى وحدات منفصلة غير ملتزمة . ولا يتحقق للكائن الحي أقصى غاياته
إلا في حياة اجتماعية من هذا القبيل . وخير الناس وأكثرهم حظاً من
الحياة « من كانت حياته — وهي في نفسها فتيةً قوية — مبعثاً للقوة
والنشاط في فعل غيره من الناس ، ومن كانت حياته — وهي في نفسها
نبيلة كريمة — تضيء بأشعة نبيلها وكرمها نفوس الآخرين » .
ويختم « برغسون » فلسفته بقوله : إن مآل « الكائنات الحية جميعها
أن تحيا بالتضامن » وإن مركز إشعاع الحياة هو الله ، لأنه تعالى « هو
الحياة الدائمة والحرية الدائمة والفعل الدائم » .

(٢٦) دريش^(١) H. Driesch ولد سنة ١٨٦٧

يعد دريش في طبيعة أصحاب المذهب الحيوى أو المذهب الحيوى الجديد فى العصر الحاضر. والفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا المذهب هى أن الظواهر الحيوية لا يمكن أن تستقل العلوم الطبيعية والكيميائية بشرحها شرجاً تاماً ، ولهذا قال دريش بنظرية تثبت وجود قوة فى الكائن الحى وغاية يتحرك دائماً الى الوصول إليها ، معارضاً فى ذلك مذهب الميكانيكيين الذين قالوا إن الظواهر الحيوية جميعها وليدة عوامل طبيعية وكيميائية بحتة . ومن الأدلة التى استند إليها فى رفضه للنظرية البيولوجية الميكانيكية ما يأتى :

(أ) أنه قد يظهر كائن تام التكوين عن « بويضة » ناقصة التكوين : فقد ينمو مثلاً جنين كامل من خلية فى « بلاستولا » (وهى البويضة المقسمة) ذات خليتين أو أربع أو ثمانى خلايا . وقد ينشأ من خلية واحدة من « بلاستولا » ذات أربع خلايا عضو من الأعضاء يختلف بحسب عدد الخلايا التى تفصلها من الأصل . وهذا يدل لا محالة على وجود أثر لعامل حيوى خاص غير العوامل الطبيعية الكيميائية .

(ب) بمثل هذا يقال فى « بلاستولا » الحيوان المعروف باسم « إكينودرم » (مثل قنفذ البحر وغيره) الذى يتكوّن بانقسام البويضة ،

(١) هانس دريش : فيلسوف وعالم من علماء الحياة فى ألمانيا متأثر بكنت فى نظريته فى المعرفة وأرسطو فى فلسفته الطبيعية . ألف فى علم الحياة وفلسفة الحياة خاصة . كان مدرسا فى هيدلبرج .
(المترجم)

فإن خلية واحدة من خلايا البويضة ، أو مجموعة منها ، تعمل عمل البويضة الكاملة وهذا أمر بعيد كل البعد عن الميكانيكية البحتة .

(ح) إنه في حالة إزالة جزء من مخ حيوان حتى يقوم بعد مدة من الزمن بجزء آخر من أجزاء المخ بتأدية وظائف الجزء المزال .

(د) إن العقل الإنساني يسجل التجارب التي يحصل عليها الإنسان في حياته ويخزنها في صور فكرية ؛ وهذا الحفظ وإن كان ممكناً لبعض الآلات الميكانيكية — كالآلة الحاكية مثلاً — إلا أن الحفظ الآلي يختلف كل الاختلاف عن حفظ الأفكار ؛ لأن هذا الأخير يمكن استخدامه في توليد أفكار أخرى جديدة . فالانفعالات الحيوية إذن لا يمكن تفسيرها ، في نظر دريش ، تفسيراً ميكانيكياً بحتاً ؛ وهي عنده أشبه بأجوبة معقولة عن أسئلة ملقاة ؛ أو أشبه بالحديث الذي يتجاذب طرفيه اثنان يجيب أحدهما عما يسأل عنه الآخر . أما الذي يصدر عنه الفعل الحيوي فهو الحيوان بأكمله ، أو هو عنصر حيوي يعمل من أجل الحيوان بأكمله . وبهذا يردد دريش فكرة أرسطوطاليس في الصورة أو « الفعل »^(١) : (entelechy) كأن « الصورة » نظام منبث في الكائن الحي يظهر أثره في نمو الكائن وفي كل ما يصدر عنه من الأفعال الحيوية . فإذا فقد الحيوان المعروف باسم « تريتون » مثلاً قدماً

(١) يقول أرسطوطاليس إن الشيء يكون بالقوة قبل أن يكون بالفعل ؛ وهو يصير بالفعل بقوة محرّكة فيه تحقق وجوده الكامل ، وهذه القوة هي ما يسميه أرسطو entelechy التي تترجم عادة بالصورة أو بالفعل أو الكمال .

من أقدامه سارعت قوة « الفعل » فيه فكونت له قدماً أخرى شبيهة بتلك التي فقدتها . وهكذا في كل حالة يحتاج فيها الكائن إلى أى تعديل في نظامه كما هو واضح من الأمثلة المتقدمة .

وقد طبق دريش فكرة « الفعل » أو « الصورة » أيضاً في دراسته لعلم النفس ، فإنه درس هذا العلم على نحو ما درسه « السلوكيون » ، واعتبر موضوعه البحث في الكائنات الحية من حيث ما يصدر عنها من الأفعال . فالسلوك الحيوانى ^(١) (بما فيه السلوك الإنسانى) قريب الشبه بالنمو الحيوانى من حيث أن كلا منهما موجه نحو تحقيق غاية خاصة أو غرض خاص . وكما أن نمو الحيوان توجّهه « الصورة » ، كذلك يوجه سلوكه قوة تماثلها يسميها دريش « سيكويد » ، أو قوة جبليّة عاقلة تدفع الحيوان إلى الفعل . ويظهر هذا الدافع في الحركات الأولى التى يأتى بها الحيوان حديث العهد بالولادة . ومن هذا يتضح أن وجوده سابق على كل خبرة وتجربة . ولكن الحيوان يكتسب بمرور الزمن خبرة ، كما يكتسب علماً يستعين به على تنظيم أفعاله ، فتصبح له غايات أخرى ، وتحصل له معرفة أخرى ، يختلفان عن الغايات الأولى والمعرفة الأولى اللتين تصدران عن العقل الجبليّ (سيكويد) المتقدم الذكر .

هكذا دفع التفكير « بدريش » — وهو عالم بيولوجى — إلى

(١) تستعمل كلمة السلوك هنا بمعنى عام يدخل تحته السلوك الحلقى وغيره فالمراد به كل فعل يصدر عن الكائن الحى ويحقق غاية خاصة له ، وهذا هو المعنى الذى يستعمل فيه هربرت اسبنسر هذه الكلمة .
(المترجم)

مذهب فلسفي كامل من نوع الفلسفة الألمانية المثالية . وربما كانت فكرة الصورة ، أو « الفعل » التي يظهر أثرها في كل ناحية من نواحي مذهبه أهم نقطة مثيرة للاعجاب في هذا المذهب . وهو أميل إلى الاعتقاد بأن « الله » — أو المطلق — هو « صورة الصور » في الكون ؛ أو أنه القوة التي يصدر عنها كل ما له وجود بالفعل . ومن الطبيعي أن تسوق فكرة « الصورة الإلهية » دريش إلى القول بأن للعالم غاية يتجه إلى تحقيقها لأن فكرة « الصورة » مقرونة دائماً بفكرة الغاية . ولكن دريش يقر بمعجزه عن البرهنة على وجود غاية قصوى يتجه نحوها العالم .

(٢٧) ويليم جيمس^(١) W. James ١٨٤٢ — ١٩١٠

كان « جيمس » أكبر الدعاة إلى الحركة الفلسفية الأمريكية المعروفة بالفلسفة العملية (أو براغماتزم) . أما كلمة « براغماتزم » فكان أول من أدخلها إلى الفلسفة « بيرس »^(٢) (١٨٣٩ — ١٩١٤) في

(١) وليم جيمس : فيلسوف وعالم نفسي أمريكي : تعلم في جامعة هارفارد وعين أستاذاً لعلم الفسيولوجيا والنسج ثم لعلم النفس بها . يعد من أكبر علماء النفس ومن واضعي دعائه العلمية في العصر الحديث . وكتابه « أصول علم النفس » مزيج غريب من مسائل هذا العلم ومن التحليلات النفسية والفلسفية والأدبية . وقد غلبت هذه الروح عليه حتى قيل فيه إنه يكتب علم النفس بأسلوب الروائيين ، كما قيل في أخيه « هنري جيمس » الكاتب الروائي إنه يكتب رواياته بأسلوب علماء النفس . وتغلب على جيمس نزعة التصوف في التفكير ، ولعله ورث هذه النزعة من أبيه الذي كان ينتمي بالفعل إلى فرقة صوفية . ولجيمس شهرة أخرى فوق شهرته بعلم النفس ، ذلك أنه يعد بحق واضع أساس المذهب الفلسفي الجديد المعروف باسم « براغماتزم » . المترجم (٢) كتب تشارلز بيرس مقالة في مجلة أمريكية شهرية في يناير سنة ١٨٧٨ =

سنة ١٨٧٨ وإن كانت الفكرة الأساسية فيها ترجع إلى بروتاغوارس
السوفسطائي القديم الذي قال : « إن الإنسان مقياس كل شيء » . وعل
خير ما تفسر به فلسفة جيمس أنها رد فعل قصد به محاربة المذهب العقلي
الذي أسرف أصحابه في القول به ؛ وكذلك محاربة مذهب « الواحدية »
أو « الفردية » الذي قال به أصحاب الفلسفة المثالية المطلقة ، واعتبارهم
العالم نظاماً أزلياً تام الخلق والتكوين ، لا يعتره شيء من التغيير ؛
أو بعبارة أخرى تصويرهم للعالم بأنه « عالم جامد » . وقد أحس « جيمس »
بشعور عميق إزاء كل كائن حي متحرك ، فكان لشعوره هذا فضل كبير
في جميع الخصائص التي يمتاز بها مذهبه الفلسفي ، وذلك كالطرافة التي
نجدها فيه ، وكقوله بوجود الكثرة في الكون ، وقوله بفردية الكائنات
أو استقلالها وحريتها . وقد تأثرت فلسفته ، إلى حد ما ، بفلسفة
« رينوفييه » وهو الفيلسوف الفرنسي الذي انتصر لمذهب « الاختيار »
على المذهب العلمي للجبر ؛ ولذلك نجد شيئاً من الصلة الروحية ومن
المشاكله بينه وبين « برغسون » .

سبق لجيمس في كتاباته في علم النفس أنه أبرز خاصية « الفعل »
التي للشعور أو الإدراك . فإن الشعور عنده « ساحة غاصة بموضوعات
متعددة ماثلة أمام العقل في وقت واحد » والعقل يختار من بين هذه
الموضوعات — تحت تأثير عوامل وجدانية أو عوامل عملية — بعضها

تحت عنوان « الطريق إلى توضيح أفكارنا » ، فكانت هذه المقالة الأساس الذي
بنى عليه ويليم جيمس فلسفته العملية المعروفة باسم برغماتزم . (المترجم)

ويترك البعض الآخر ، ثم يضع تلك التي وقع عليها اختياره موضع الانتباه وبهذا المعنى ينتزع كل عقل - أو كل شعور - « صورة للعالم خاصة به دون غيره من بين سحب متراكمة من ذرات متحركة في فضاء متصل لا نهاية له » .

لننتقل الآن إلى نظرية جيمس في المعرفة الإنسانية فنراه يفرق بين نوعين منها : - الأول : معرفة الإنسان بالأشياء (وفيها تدرك الأشياء إدراكاً مباشراً) : الثاني : معرفة الإنسان بحقيقة من الحقائق عن الأشياء (وفيها لا تدرك الأشياء إدراكاً مباشراً بل بواسطة المعاني القائمة بالذات) أما فلسفة جيمس العملية فتظهر في طريقة تأويله لهذه المعاني بإضافتها إلى النتائج العملية التي تتضمنها ، وإلى الإحساسات المتوقعة الحصول عنها ، وإلى الانفعالات التي يلزم إعدادها لها . « إذ التفكير من أوله إلى آخره وفي كل حالة من حالاته ، هو من أجل الفعل » . و « ليس تصورنا لأي شيء ندركه عن طريق الحس في الحقيقة سوى ذريعة يراد بها تحقيق غاية من الغايات » . وهذا معناه أن الأفكار يجب اختبارها إما بحصول ما يتوقع حصوله من التجارب الحسية المتصلة بها ، أو بأن تأتي الانفعالات المعدّة لها ملائمة للعرض المقصود منها . « فليس « الحق » سوى التفكير الملائم الذي أتى محققاً لغايته ، كما أن « الصواب » ليس سوى الفعل الملائم الذي أتى محققاً لغايته . والملائم هنا هو الملائم على أي وجه كان ، والملائم في نهاية الأمر ، والملائم في جملة طبعاً » . فإذا لم يكن اختبار الأفكار عن طريق حصول ما يتوقع حصوله عنها من

التجارب الحسية كان لنا أن « نأخذ بها » إذا شَجَعْنَا على الأخذ بها
عوامل وجدانية أو عملية . وفكرة « الله » مثلاً من هذا القبيل .
أما نظرة جيمس إلى العالم فقد كانت إلى حد كبير — كما كانت
فلسفته العملية — نتيجة لنظرياته في علم النفس . فإنه يرى أن في « التجربة »
كل العناصر الضرورية التي تتألف منها حقيقة الكون . وإذا قال المثاليون
إن العلاقات والنسب بين الأشياء من خلق العقل ؛ وإذا هم افترضوا
وراء العالم المحسوس روحاً تحفظ عليه وحدته ، قال جيمس مناقضاً لهم
« إن العقل يدرك العلاقات التي ترتبط بها الأشياء إدراكاً مباشراً »
كما يدرك الأشياء ذاتها . بل الواقع أن الشعور نفسه ليس إلا نوعاً من
أنواع الروابط التي ترتبط بها التجارب : فإن النظام الكوني الموثق من
الحقائق الخارجية ومجرى الشعور الداخلي ليسا في الحقيقة سوى « تجربة »
واحدة منظور إليها من جهتين مختلفتين .

هذا هو « المذهب التجريبي المتطرف » الذي قال به « جيمس » .
وقد دعاه مذهبه النفسى أيضاً إلى القول بوجود عقل فوق العقول البشرية
هو جماع العقول الجزئية كلها . وقد عزز هذا الرأي في نظره أدلة مستمدة
من الأبحاث النفسية مثل « الكتابة الآلية » و « الوساطة » وغيرها ؛
وكذلك أحوال تعدد الشخصية ، وفوق هذا وذاك ما يسميه هو
« بالمظاهر المختلفة للشعور الدينى » . حملت هذه الأمور كلها « جيمس »
على الاعتقاد بوجود مصادر أو ينابيع للشعور من نوع العقول البشرية
إلا أنها أعظم منها ؛ أو بوجود عدد من القوى يتصل بها العقل الإنسانى أحياناً

وفي أ
أن في
تحقيقه
ويكفي
(٢٨)

فرع
الفك
حياته
بفعل
إنما
سبيله
النجاة
هذا
وقد
الفسف
الأخلا
وحب

ويسلم جيمس بمذهب المؤلثة ولكنه يصف الله بالتناهي في قدرته وفي أفعاله . أما العالم في نظره فليس للجبر عليه سلطان ؛ بل هو يعتقد أن في استطاعة الإنسان أن يحقق في العالم كل شيء بحكم العقل بوجود تحقيقه . والرجل البار عنده هو من « أخلص في جهاده » في سبيل الخير ويكفي في تبرير إخلاصه أن يكون للخير دائماً الغلبة في نهاية الأمر .

(٢٨) ديوي^(١) J. Dewey ولد سنة ١٨٥٩

يمكن أن نطلق على فلسفة ديوي إسم : « فلسفة الذرائع » التي هي فرع من فروع الفلسفة العملية أو « البرغماتزم » . ويعتبر « ديوي » الفكر في أصل نشأته خادماً للحياة ؛ إذ الناس لا يفكرون ما دامت حياتهم سهولة لينية ، ولكنهم يضطرون إلى التفكير اضطراراً إذا هم هموا بفعل أمر من الأمور ، فحال دون هذا الأمر حائل . وهم بتفكيرهم هذا إنما يحاولون أن يخطوا لأنفسهم خطة يواجهون بها الصعوبات القائمة في سبيلهم ليتغلبوا عليها . أما صحة تفكيرهم فتقاس بمقدار ما يحرزونه من النجاح . وفي هذا المعنى يقول « ديوي » : « كل ما هدانا حقاً فهو حق » . هذا وقد يظن بعض الناس ، أن العلوم إنما تعنى بالمعرفة لذات المعرفة ؛ وقد يظهر لأول وهلة أن ما يجمعه العلماء من القواعد العلمية النظرية ليس

(١) جون ديوي : فيلسوف وعالم من أكبر علماء التربية في أمريكا وأستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا . أكثر مؤلفاته في التربية في ناهيتها النظرية والعملية ، وفي الأخلاق . يرى أن الغرض الأسمى من التربية هو غرس صفات الديمقراطية والحرية وحب العمل في نفوس الناشء .
(المترجم)

له مساس بما تتطلبه الحياة العملية من الحاجات ، ولكن الواقع أن كل سعى وراء الحقيقة ليس سوى أسلوب منظم من أساليب البحث يراد به خلق الوسائل الناجمة التي يمكن أن نستخدمها في حياتنا العملية ، ولهذا يرى « ديوى » أن موضوع التفكير دائماً أمر معنوى ؛ أو بعبارة أخرى هو خطة لفعل من الأفعال . أى أن موضوع التفكير ليس شيئاً له وجود بالفعل ، بل هو أمر يخلقه العقل تدريجياً بقوة فعله . ولهذا كان من الطبيعي أن يكون للمسألة الخلقية الشأن الأول في فلسفة « ديوى » .

ويظهر أن الباعث الأول الذى حمله على وضع « فلسفة الذرائع » هو رغبته فى القضاء على ما جرى به العرف من اعتبار « العلوم والأخلاق » دراستين مستقلتين ، لكل منهما منطق خاص به ومنهج بحث خاص به ، ولذلك يقول : « طالما شعرت بأن وضع منطق » ، أى وضع طريقة ناجمة للبحث لا تختلف فى تطبيقاتها على موضوعات كل من هذين العلمين المسميين بهذين الاسمين (العلم والأخلاق) قد يكون فيه أكبر غناء لما نحتاج إليه من الناحيتين « النظرية والعملية » . أما الذى حرك فى نفسه الميل إلى وضع هذا المنطق العملى المشترك ، فهو رغبته الصادقة فى تقدم الحياة الاجتماعية وإيصالها إلى الحرية بأكمل وأوسع معانى هذه الكلمة . وهو يعتبر مذهب « الذرائع » أساساً فلسفياً صالحاً للوصول إلى هذه الحرية المنشودة ، لأن أقل ما يقال فيه إنه محارب لكل شيء من شأنه أن يسبب المحافظة والجمود أو يضع العقبات فى سبيل التطور الاجتماعى ، وإنه يرحب بكل تجربة جديدة ، ويشجع كل مسمى يراد به تنظيم الهيئة الاجتماعية على أساس

جديد

الفلسفة

موضوع

للبحث

ما هو

الأور

ولكن

التحيز

حيث

(٢٩)

يطلق

وهي

المعرفة

مختلفة

فنشر

نشر

فلسفتنا

جديد . ولكن « ديوى » — مثل « وندلباند » — يعتقد « أن الحركة الفلسفية البنائية في المستقبل ستظهر عند ما تصير العلوم والفنون الاجتماعية موضوعاً للبحث النظرى كما كانت العلوم الرياضية والطبيعية موضوعاً للبحث النظرى فى الماضى ، وعند ما يدرك معناهما وأهميتهما تمام الإدراك » وربما كان من أكبر العوائق القائمة فى سبيل التقدم والرقى إلى ما هو أبعد مما خلفه ذلك « التاريخ الإقليمى » المعروف بتاريخ الغرب الأوروبى ، قلق كثير من الناس على الدين فى حاضره ومستقبله . ولكن « ديوى » يعتقد أن مثل هؤلاء الناس « إنما يحركهم باعث التحزب والتجيز لدين خاص أكثر مما يحركهم باعث التجيز للدين من حيث هو » .

(٢٩) فايينجر^(١) H. Vaihinger ولد سنة ١٨٥٢

وضع « فايينجر » مذهباً فلسفياً مثالياً واقعياً فى آن واحد . وهو يطلق على مذهبه هذا عادة اسم « فلسفة كأن » أو الفلسفة الأسطورية ، وهى مزيج من عناصر مختلفة : منها فلسفة كنت الوضعية (القائلة بأن المعرفة الإنسانية قاصرة على الأمور الواقعة فى حدود التجارب) ومنها

(١) هانس فايينجر : فيلسوف ألماني درس اللاهوت والفلسفة فى جامعات ألمانية مختلفة وعين أستاذاً فى جامعة استراسبورج سنة ١٨٨٣ عنى بوجه خاص بفلسفة كنت فنشر فيها دراسات كثيرة وتناولها بالشرح والتحليل والتعليق . وفى سنة ١٩١١ نشر كتاباً تحت عنوان فلسفة « كأن » وهو عنوان غريب ولكنه مستمد من روح فلسفته التى تجدها ملخصة فى صلب هذا الكتاب . (الترجم)

الفلسفة العملية أو « برغماتزم » (وهي الفلسفة التي تعطي المكان الأول
للعقل العملي) ، وفلسفة شو بنهور في الاختيار والنشأوم ، ونظرية دارون
في التطور ، وفلسفة « ميل » التجريبية (التي ترد الحقائق جميعها إلى
الإحساسات والظروف الدائمة التي عنها تظهر الإحساسات .)

ويقول « فايبنجر » إننا إذا حللنا الظواهر النفسية انتهى بنا التحليل
إلى الإحساسات والوجدانات والحالات النزوعية ؛ وإذا حللنا المعرفة
انتهى بنا التحليل إلى مادة الحس (أو ما يحتوي عليه الإحساس) ؛
وإذا حللنا المادة انتهى بنا التحليل إلى السكتلة والحركة . فمن ناحية
حياتنا العملية نجد أن هذه الحقائق الأولية المختلفة منسجمة انسجاماً
تاماً ؛ أما من ناحية التفكير فنحن عاجزون عن أن نؤلف منها جميعها
نظاماً واحداً معقولاً : ذلك أن الفكر كان في أصل نشأته مجرد أداة
استخدمها الإنسان في ميدان تنازع البقاء ، فهو لا يزال عاجزاً عن
معالجة المسائل النظرية البحتة . ولكن الحال قد تحولت ، وأصبح
التفكير غاية في نفسه بعد أن كان وسيلة لتحقيق غيره . وليس هذا
بدعاً في الطبيعة ، بل هو مثال واحد من أمثلة قانون عام : أعني أن
ما كان في أصل نشأته مجرد وسيلة لتحقيق غاية خاصة ، قد يتطور
فيتجاوز ما كان في الأصل وسيلة لتحقيقه ويتحرر من الغاية التي كان
ينشدها ، ويصبح غاية في نفسه . بهذه الطريقة أصبح الفكر غاية في
نفسه ، وأصبح يضع لنفسه من المسائل ما لا قبيل له بحالها ، وذلك كسألة
أصل العالم ، أو معرفة كنهه وحقيقته وما شاكل ذلك من العضلات

الميتافيزيقية . ولكن حل هذه المعضلات وراء طور الفكر — لا الفكر
الإنسانى وحده — بل الفكر من حيث هو : فإن كثيراً من الأفكار
ليس فى الحقيقة إلا نوعاً من القصص أو الأساطير يعمد العقل إلى خلقها
ليستعين بها على حل المشكلات النظرية ، ولكنه حل فى الظاهر
لا غير . وفى العلوم الطبيعية ، إلى جانب الفروض العلمية المستندة إلى
التجارب ، كثير من هذه الأفكار القصصية ، أو الأساطير التى يخلقها
العقل اختلاقاً . وكذلك الحال فى علمى الأخلاق والجمال وفى الدين .
فالذى نسميه « بالحقيقة » إذن إنما هو هذه الأمور التى ندركها بحواسنا
أو هو مادة الحس التى لا نستطيع إنكارها لما لها من الأثر فىنا . ويتجلى
لنا فى هذه الأمور التى ندركها بالحس قوانين ، أو اطرادات فى وقوع
الحوادث سواء منها الحوادث المتلاقية فى الزمان أو الواقعة فيه على التوالى
أما مهمة العلوم فهى العمل على التثبت من صحة هذه القوانين .

وليست أجسامنا سوى طائفة من هذه الحقائق التى ندركها بالحس ،
ونحن بواسطتها نستطيع أن نؤثر تأثيراً كبيراً فى العالم المحيط بنا (الذى
هو مجموعة من حقائق أخرى ندركها بالحس) .

وفى العالم كثير من الظواهر الدالة على وجود الغاية وفيه الكثير
أيضاً مما لا يدل على وجود غاية ما ، ولهذا يجب علينا أن نفهم العالم كما
نجده . وربما كانت الأساطير عوناً لنا من الناحية الأخلاقية والجمالية ؛
فإن كثيراً من الناس مثلاً يطمثنون إلى الأسطورة القائلة بأن العالم قد
خلقته أو دبّرتة روح عالية كاملة ، وإن كانت هذه الأسطورة مفتقرة

إلى أسطورة أخرى متممة لها تقول بوجود قوة للشر مقاومة للقوة السابقة .
وليس للعالم قيمة ولا شأن في ذاته ، فلا يحسب الإنسان أنه واجد
قيمة أو معنى للعالم فيه ، بل يجب عليه أن يضع قيمة ومعنى للعالم يستمدهما
من حياته العملية .

والعقل العملي والإدراك البديهي ، في نظر « فاينجر » أرقى من
التفكير النظري ، فإذا اتصلنا بالحقيقة اتصالاً فعلياً ذهبنا كل مشاكنا
النظرية ، وأصبح عملنا في العالم ومن أجل العالم أعظم شأنًا من مجرد
تفكيرنا النظري فيه .

٢٠)

ال

أر

إد

ال

و

و

و

فد

لا

الفصل التاسع

مذهب الواقع

مذهب التطور الفجائي : مذهب النعير في إنجلترا وجنوب

أفريقية والولايات المتحدة

(٣٠) ألكسندر^(١) S. Alexander

وضع ألكسندر مذهباً فلسفياً من أهم صفاته أنه يتفق مع الروح العلمية الحديثة ، ومع الفتايج العامة التي وصل إليها العلماء . وهو يرى أن هيولى العالم هي « الزمان والمكان » أو الكون الزمان المكاني : إذ المكان وحده مجرد معنى من المعاني ، وكذلك الزمان وحده ؛ أما الحقيقة الموجودة بالفعل فهي الكون الزماني المكاني ذو الأبعاد الأربعة و « الكون الزماني المكاني » هو الحركة البحتة^(٢) لأن الزمان غير

(١) صمويل ألكسندر فيلسوف بريطاني استرالي الأصل ولد في سدني باستراليا وتعلم في جامعة ملبرن ثم ذهب إلى أكسفورد فدرس بها اللغات القديمة والرياضية والفلسفة وتفوق فيها جميعها . كان أستاذ الفلسفة في جامعة مانشستر . والناظر إلى فلسفة « ألكسندر » يرى أثراً واضحاً لعقليته الرياضية فيها . (المترجم)

(٢) أي الحركة من حيث هي حركة : وهي الانتقال من نقطة زمانية مكانية إلى نقطة أخرى ، وليس المقصود حركة الأجسام الطبيعية . (المترجم)

ساكن . غير أن الحركة البحتة ليست بعدُ مادة واقعة في الحركة ، لأن من الضروري أن توجد المادة أولاً قبل أن تصير في الحركة . وفي إمكاننا أن نميز في الكون الزماني المكاني في جملته نقطاً زمانية مكانية ، وهذه النقط الزمانية المكانية هي الحوادث الكونية البسيطة .

و « للكون الزماني المكاني » بعض الصفات العامة التي — بفضل وجودها فيه — تخلت جميع الموجودات وصارت صفات لها : وهذه الصفات العامة هي الوجود والسكينة والنسبة والنظام والجوهرية والسكينة والعدد والحركة . غير أنه إلى جانب هذه توجد صفات أخرى كثيرة مستمدة من التجربة بها تتميز أنواع مختلفة من الموجودات التي تظهر تحت ظروف معينة ؛ لأن « الكون الزماني المكاني » يتخذ من تلقاء نفسه أشكالاً أو هيئات مختلفة من النقط الزمانية المكانية . وأبسط هذه الأشكال أو الهيئات يتكون من حركات مختلفة السرعة والمدى . فإذا ما تكون من هذه النقط الزمانية المكانية ، أو من بعضها ، أشكال خاصة ظهرت صفة جديدة هي صفة المادية . أما الصفات أو السكينية الأخرى كاللون والرائحة فتظهر تحت ظروف أخرى زائدة على الأولى ؛ وإذا ما تهيأت ظروف جديدة غير هذه وتلك ، ظهرت خاصية الحياة ؛ وإذا تحقق للسكان الحي ظروف أخرى فوق هذه كلها ، ظهر الشعور أو العقل الذي هو صفة جديدة زائدة على صفة الحياة في السكان الحي . وهكذا ترى الموجودات سلسلة متصلة الحلقات متفاوتة في درجات الرقي ؛ وفي كل راق منها صفاته إلى جانب الصفات الدنيا التي ظهرت

عنها صفاته . ولكن نسبة الكائن إلى أعلى صفاته مختلفة عن نسبه إلى صفاته الدنيا ؛ فهو يشعر بشيء من الالذة (أو هو يدرك إدراكاً مباشراً قوياً) صفته العليا ، ولكنه يشاهد فقط (أو يدرك إدراكاً سطحياً) صفاته الدنيا . فإذا أدرك الإنسان مثلاً جسماً من الأجسام (وليكن جسمه هو) شعر بلذة من عملية الإدراك ، وشاهد في الوقت نفسه الجسم المدرك ، لأن كل فعل شعوري هو فعل عصبي أيضاً . والفعل الإدراكي الذي أعقب اللذة في المثال المتقدم هو في الوقت نفسه الفعل العصبي الذي شاهده الشخص المدرك . والعقل بهذا المعنى هو الجوهر الذي تصدر عنه طائفة الأفعال التي لها خاصية الشعور . وإدراك العقل للأشياء معناه اتصاله بها أو وجوده معها ؛ وهذه حالة خاصة من حالات الاتصال العام الذي عليه الأشياء جميعها : إذ الأشياء كلها « موجودة معاً » ومتصلة الواحد منها بالآخر . ولا يغير العقل كفيات الأشياء التي يدركها بحال من الأحوال .

والشعور ، ولو أنه أعلى صفة في الإنسان ، إلا أن من العقول أن نفترض وجود صفات أعلى منه في العالم . وأعلى الصفات جميعها ، في نظر « ألكسندر » ، صفة الألوهية التي يعدها أعلى صفات الله ، كما أن « الشعور » أعلى صفات الإنسان . وهو يقول إن العالم بأسره هو جسم الله ، والعقل صفة من صفاته الدنيا . أما الألوهية ، فلا ندرى من أي الصفات هي ، غير أن لنا أن نفترض أن طبيعتها متغيرة ؛ فإن العالم لم يزل ناقصاً ، ولا يزال المجال متسعاً لظهور صفات جديدة فيه أعلى مما

هو عليه . ولهذا كانت « الألوهية » في تغير مستمر ، أو في حالة صيرورة
دائمة . أما الله — الذي هو في نظر ألكسندر العالم بأسره متحركاً نحو
الألوهية — فوجوده على الدوام ، وهذا يفسر لنا شوق الإنسان إلى الله
وإلى الاتصال به . أى أن اتجاه العالم نحو الألوهية هو الذى يحرك فينا
ذلك الشوق إلى الله . والدين في ناحيته العملية ينحصر ، على هذا الرأى
فى أن يأخذ كل إنسان بنصيب فى العمل على تقدم العالم وإبصاله إلى
درجة الألوهية ، ويكون ذلك بالانتصار للخير على الشر فى شؤون
الحياة الإنسانية .

أما علاقة الكثرة المتناهية بالواحد غير المتناهى ، « فالواحد أشبه
بالنظام الذى يصون الكثرة ويحفظها ، منه بالبحر الذى يبتلعها » .

(٣١) هبوس^(١) L. T. Hobhouse ١٨٦٤ — ١٩٢٩

يمكن وصف فلسفة « هبوس » بأنها أسلوب من أساليب الفاسفة
الواقعية التى تظهر فيها فكرة التطور . وأخص ما يسترعى نظر الباحث
فيها محاولة « هبوس » التوفيق بين عدد كبير من المذاهب الفلسفية
المتعارضة : كذهبي الوحدة والكثرة مثلاً ، وكالمذهبين المثالى والمادى ،

(١) ليونارد هبوس : عالم اجتماعى وأخلاقى انكليزى : تعلم فى جامعة أكسفورد
ثم شغل بعد ذلك وظائف مختلفة فى الصحافة والسياسة حتى انتهى به الأمر إلى أن
عين فى سنة ١٩٠٧ أستاذاً لعلم الاجتماع فى جامعة لندن . انقطع بعد ذلك إلى مهمة
التدريس والتأليف وأخص ما كتب فيه العلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية .

والمذهبيين التجريبي والعقلي . وقد أخذ « هبهوس » - تحت تأثير « بوزنكيت » - بالفكرة القائلة بأن العقل وحدة منتظمة مؤلفة من أجزاء ، وأن الأحكام العقلية المباشرة ليست أحكاماً نهائية . « وأساس الأحكام العقلية هو ما بين الأحكام نفسها من علاقات ونسب فالكل (أى العقل فى جملته) يعتمد على أجزائه ، وهى بدورها تعتمد عليه فى بقائها . وهذه الوحدة النظامية التى تفتقر فى وجودها إلى أجزائها كما تفتقر أجزاؤها إليها ، هى ما نطلق عليه اسم العقل » . والعقل عقلاان : نظرى ، وهو المجهود العقلى الذى نبذله كله من غير انقطاع فى التوفيق بين الأحكام التى تفسر لنا تجاربنا ؛ وعملى ، وهو هذا المجهود نفسه منصرفاً إلى النظر فى كل ما نضع له قيمة من تجاربنا .

ومن الخطأ البين أن نعتقد أننا بواسطة « الكل » نستطيع شرح أجزائه شرحاً تاماً ، من غير أن نحاول فى الوقت نفسه أن نشرح « الكل » نفسه بواسطة الأجزاء التى ينطوى عليها . وقد كان هذا الخطأ إلى حد كبير السبب الذى دفع بالفلاسفة المثاليين إلى القول بأن حقيقة الأشياء هى العلم بالأشياء ؛ وهم بهذا قد أنكروا أن العلم بأى شىء يقتضى وجود حقيقة خارجة عن العلم يتعلق بها العلم نفسه . وفى هذا المعنى يقول « هبهوس » : « إن الشىء لا يوجد لأنه يُعلم ، ولكنه يعلم لأنه موجود » « وبالجملة ليس فى طبيعة العلم ذاته ما يحدد من طبيعة الشىء المعلوم أو القابل لأن يُعلم ؛ فيجب إذن أن نعلم ما هى عليه الأشياء عن طريق أحكامنا المباشرة عليها ما دامت هذه الأحكام خالية

من التناقض « . والعلم بهذا المعنى هو نسبة بين أحكامنا العقلية المباشرة على الأشياء والأشياء نفسها . فإن الأحكام العقلية التي تتألف منها وحدة نظامية مرتبطة الأجزاء تقتضى وجود حقيقة خارجة مرتبطة الأجزاء كذلك ؛ وذلك لأن أعيان الموجودات تتشكل ضرورة بشكل العقل بل على العكس ، لأنه قد صار من عادة العقل أن ينصبغ بصبغة موضوعاته عند ما يهيب نفسه لقبولها .

غير أننا يجب ألا نبالغ في وصف ما نسميه بالترابط بين أعيان الموجودات ، بل ينبغي أن نفرق بين نوعين من الوحدة : وحدة التركيب ووحدة الانسجام . أما وحدة التركيب فتوجد في كل مركب له أجزاء يقوم كل منها بوظيفة مستقلة ويفتقر في قيامه بوظيفته إلى الأجزاء الأخرى . والقاعدة أنه كلما زاد افتقار الأجزاء بعضها إلى بعض كان السكل أميل إلى الانسجام ؛ وإذا زاد استقلال كل من الأجزاء عن الآخر عظم الميل إلى التنافر . والنظام الكونى « وحدة » من النوع التركيبى ، ولكنه سائر فى شيء من البطء نحو تلك الوحدة الانسجامية المعقولة . والعقل ، بما يصدر عنه من الأفعال الغائية ، متجه نحو ذلك الانسجام وذلك الاتصال المذكورين . ولكن « الميكانيكية » لا تزال فى الكون ، لأنه لا تزال فيه حقائق لا انسجام بينها وبين غيرها . ومع ذلك فأخص صفات الكون فى جملته صفة النمو أو التطور ؛ وليس الموت حداً لهذا التطور ، لأنه لا ينتهى به ، بل هو يفتهى بحصول الانسجام الذى هو مصدر حياة الكائنات جميعها . وسوف تكون للقوة الروحية

— أو لمبدأ الخير المنبث في الكون بأسره — الغلبة والسلطان يوماً ما ،
إذ الشر ليس من طبيعة الأشياء من حيث هي ، وإنما هو راجع إلى عدم
وجود الانسجام بينها . فليس في العالم قوة للشر كما فيه قوة للخير ، وإذن
فالعالم خليق بأن نعيش فيه وأن نجاهد في الحياة من أجله .

(٣٢) لويد مورغان^(١) C. Lloyd Morgan وُلد سنة ١٨٥٢

يكاد يعد لويد مورغان مؤسس المذهب الفلسفي المعروف باسم
« مذهب التطور الفجائي » وفلسفته بوجه عام فلسفة واقعية اثينية .
وهو يسلم بوجود عالم طبيعي مملوء بالحوادث التي يمكن تفسيرها بالإضافة
إلى الأبعاد الأربعة التي هي الزمان والمكان . ثم يقول إن بين الحوادث
الطبيعية صلوات من أنواع مختلفة ، وإن أنواع هذه الصلوات تظهر في
شكل سلسلة مرتبة حلقاتها ترتيباً تصاعدياً في حالة الذرات والجزيئات
والخلايا العضوية والكائنات الحية على التوالي ، فيحتوى كل نوع
من هذه النواع أو الأنواع التي تتقدم عليه . وهو يفترض كذلك وجود
اتصال بين الظواهر النفسية والظواهر الطبيعية : فإذا ما حدث في لقاء
المخ بعض التغيرات المادية حدث الشعور . والاتصال بينهما دائم غير
منقطع ، بمعنى أنه لا توجد حوادث طبيعية ، أو مجموعات من الحوادث

(١) من أكبر علماء النفس في العصر الحديث : يعد حجة في علم النفس المقارن
لا سيما فيما يتصل منه بمباحث الفريزة والسلوك الحيواني . وهو متأثر بنظرية التطور
وله فيها وجهة نظر خاصة تعرف بمذهب التطور الفجائي . وله من الكتب : العادة
والفريزة ؛ الحياة الحيوانية والعقل ، للدخول إلى علم النفس المقارن . (المترجم)

الطبيعية ، لا تكون في الوقت نفسه حوادث نفسية (بـسيكولوجية)
أو مجموعات من حوادث نفسية . بعبارة أخرى ليس في الوجود عالمان ،
طبيعي ونفسي ، بل عالم واحد طبيعي ونفسي معاً من أعلاه إلى أسفله .
أما ما نسميه « بالشيء » فليس في الحقيقة إلا مجموعة أو طائفة منتظمة
من الحوادث أو الظواهر الطبيعية فصلها العقل وميزها عما تتصل به من
الحوادث أو الظواهر النفسية .

وإذا تجمعت الحوادث تألفت منها نظم تختلف في درجة بساطتها
وتعقيدها . ويمكن التمييز (في أي نظام من هذه النظم) بين مادة النظام
والعلاقات أو النسب التي فيه . وقد تكون النظم البسيطة مادة النظم
الأكثر تعقيداً منها . فالإلكترونات مثلاً تكون مادة الذرات والذرات
تكون مادة الجزيئات ، والجزيئات تكون مادة قطرة الماء وهكذا
حتى نصل إلى الظواهر الحيوية التي تقع في الأغشية الخلوية التي هي مادة
السكان الحي . فكل من هذه الأشياء التي ذكرناها « نظام » ؛ وكل
نظام طائفة خاصة من العلاقات أو النسب التي تسمى داخلية إذا كانت
داخل نظام واحد ، وخارجية إذا ارتبط بها نظامان أو أكثر . أضف
إلى ذلك أن هذه النظم لها وجود حقيقي في الواقع ، أي أنها ليست أموراً
يفتزعها العقل انتزاعاً من العالم الذي حوله بحسب ميوله الخاصة . والعقل
نظام داخلي بحث بالنسبة للشخص الناظر إليه ، ولكنه يمتد إلى العالم
الخارجي عن طريق شعوره بأعيان الموجودات في ذلك العالم ، وبهذه
الوسيلة تصبح هذه الأعيان نفسها موضوعات يشير إليها العقل .

والعالم بأسره يتكون في نظر « لويد مورغان » من ثلاثة أنواع من الظواهر : (١) ظواهر طبيعية كيميائية ؛ (٢) ظواهر حيوية لا توجد في غير الكائنات الحية ؛ (٣) ظواهر عقلية لا توجد في غير بعض الكائنات الحية . وبين الظواهر الحية نوع جديد من الاتصال لا وجود له في الظواهر الطبيعية الكيميائية البحتة ؛ وبين الظواهر العقلية نوع آخر من الاتصال لا وجود له في الظواهر الحيوية البحتة .

بعبارة أخرى إن صفة الحيوية صفة تعرض للكائن فجأة (أو على غير انتظار) ، وإن العقل يعرض لبعض الحيوانات على سبيل الفجاءة أيضاً . ولكن الصفات الجديدة التي تعرض فجأة لا تحمل محل الصفات القديمة التي كان عليها الكائن ، بل هي تلحق بها أو تضاف إليها لا غير . أي أن النظام الحيوي مثلاً يظل - كما كان - نظاماً طبيعياً كيميائياً ؛ والنظام العقلي يظل - كما كان - نظاماً حيويّاً . غير أن الظواهر الطبيعية الكيميائية في الكائن الحي تختلف نوعاً ما عن مثيلتها في الأجسام غير العضوية ؛ والظواهر الحيوية في الكائن العاقل تختلف أيضاً نوعاً ما عن مثيلتها في الكائن الحي غير العاقل .

ويسلم « لويد مورغان » - باعتباره رجلاً من رجال العلم - بوجهة النظر العلمية للمادية ، ويدعن لها إذعاناً قوياً ، ولكنه لو سئل - باعتباره فيلسوفاً - أن يشرح اتجاه ما يسميه « بالتطور الفجائي » لما كان في وسعه إلا أن يجيب بأن فكرة التطور - كما يفهمها العلماء - يجب أن يُضمَّ إليها فكرة أخرى ، وهي أن في الكون قوة فعالة مستترة فيه

من الأزل ، تظهر على مر الزمن وتتجه في ظهورها اتجاهاً صعودياً .

(٣٣) هويتهد^(١) A. N. Whitehead وُلد سنة ١٨٦١

أخذ « هويتهد » على عاتقه إصلاح ما أفسده غيره من الرياضيين ؛
فقد كان لطرفهم العقلية البحتة أثر كبير في أنهم جعلوا من « الطبيعية »
— وهي الغنية الحافلة بالأشياء التي ندركها إدراكاً مباشراً — عالماً
« لا نحس فيه صوتاً ولا نرى فيه لوناً ولا نشم فيه رائحة ، ومكاناً تتدفق
فيه المادة تدفقاً لا نهياً له ولا معنى » . وهو يعتقد أيضاً أن علماء الطبيعة
الرياضيين قد حللوا النظام الكوني إلى عناصر متفرقة ومزقوه كل ممزق
(وإن كان تحليلهم لحسن الحظ تحليلاً ذهنياً فقط) . لذلك جعل
هويتهد همه ردّ هذه العناصر إلى سيرتها الأولى ، فوضع مذهبه الفاسفي
الذي أطلق عليه اسم « فلسفة الكائن » . وغايته من هذا المذهب
ليست البرهنة على وجود « الكيفيات الثانية » فحسب ، بل على وجود
كل ما له أثر في الحياة الإنسانية من ناحية تقدير الجمال ، ومن الناحيتين
الخلقية والدينية . ولكن « هويتهد » على الرغم من كل هذا عالم
لا يبغض العلم حقه . غير أنه يرى أن العلماء قد قصروا همهم على البحث

(١) ألفرد هويتهد : فيلسوف ورياضي انجليزي من المدرسة الحديثة التي ترمي
إلى التفريق بين الفلسفة والعلوم الطبيعية . كتب في الرياضيات وخاصة الجبر ، وفي
علاقة الرياضة بالمنطق ، كما كتب في العلوم الطبيعية والفلسفية وفي نظرية المعرفة .
عين أستاذاً للفلسفة في جامعة هارفارد سنة ١٩٢٤ ولسكنه تولى التدريس في جامعات
أخرى مثل كمبرج وأدنبره ولا يكاد يوجد لقب من ألقاب الشرف العلمية لم يمنحه .
(المترجم)

في المعنويات ، أو في المقولات العقلية البهتة ، فكانت نتيجة ذلك أن
اتجهوا في تفسير الكون اتجاهاً مادياً ميكانيكياً ، مع أن إدراكنا إنما هو
دائماً إدراك لحوادث محسوسة . نعم للعالم أن يحلل هذه الحوادث المحسوسة
إلى عناصر ، أو ينظر إليها من وجوه مختلفة ، ولكنه ليس له أن يجسم
هذه العناصر البسيطة المعقولة ويعتبرها حقائق منفردة مستقلة . أما هذه
الحوادث المحسوسة — التي هي موضوع إدراكنا — فهي ما يسميه
« هويتهد » « نُظْماً » أو « كائنات » . وفي كل نظام من هذه النظم
أو كائن من هذه الكائنات ، تؤثر طبيعة الكائن (من حيث هو كائن
أو كشيء) في طبيعة الأجزاء أو العناصر أو الحوادث المختلفة التي يتألف
منها . بعبارة أخرى ، تشبه طبيعة « الككل » عند هويتهد « الصورة »
التي قال بها كل من أرسطوطاليس ودريش . و « الكائنية » بهذا
المعنى الواسع صفة من صفات الكون بأسره ، وليست قاصرة على الكائنات
الحية ، بل هي ظاهرة أساسية موجودة في كل ناحية من نواحي الطبيعة .
وعلم الطبيعة في نظر هويتهد هو العلم الذي يدرس الكائنات البسيطة
(كالذرات ونحوها) ، بينما يدرس « علم الحياة » الكائنات الأكثر
تركيباً . وهو بهذا لا يقرب مسافة الفرق بين الكائنات العضوية وغير
العضوية فحسب ، بل ينكر اثنيينية العقل والجسم ؛ إذ ليس العقل في نظره
سوى « نظام » خاص في مجموعة « الحوادث » التي يتألف منها الجسم .
وعن هذا النظام تصدر الظواهر العليا التي نسميها بالظواهر العقلية .
ولكن ليس معنى هذا أن هويتهد ممن يعتقدون بوجود جواهر ثابتة

للأشياء ، بل هو على العكس يأخذ بوجهة نظر علماء الطبيعة الحديثين
الذين يعتبرون الحوادث — لا الجواهر — الوحدات الأولية التي يتألف
منها الكون . أى أن الكون فى نظره ونظرهم مجموعة مؤلفة من حوادث
ومما بين هذه الحوادث من نسب . وتختلف الحوادث بساطة وتعقيداً ؛
فالركبة منها تتألف من جمل من الحوادث التى هى أبسط منها ، وهكذا
حتى ينتهى التحليل إلى الحوادث الذرية . فالكون على هذا الرأى ،
مجرى يتدفق بالحوادث بلا انقطاع ؛ وهو رأى أشبه برأى هرقليط فى
« التغير » ، ولو أن هو يتهد يفترض بالإضافة إلى هذا وجود ما يسميه
بالمثل ، أو الأعيان الثابتة ، أو المعقولات السكينة كما فعل أفلاطون ،
وبذلك يحتفظ فى فلسفته بفكرة الدوام التى قال بها الإيلياثيون ، كما
احتفظ بفكرة التغير التى قال بها هرقليط . « فى ذلك العالم الزاخر
بالحوادث المتغير على الدوام شىء ما ثابت قارٌّ ، وفى ذلك القارّ الثابت
عنصر ما يعتريه التغير » .

ويسمى هو يتهد « الحوادث الذرية » « بالظروف الواقعية » (وأحياناً
باسم الموجودات الحقيقية) . وعلى هذا فالحادثة بمعناها الواسع هى فى نظره
« رابطة بين طائفة من الحوادث الواقعية » المتقدمة الذكر ، متصل
بعضها ببعض على هيئة خاصة وبنظام خاص فى كم ذى امتداد . أما ذلك
الذى نسميه عادة « الشىء » أو « الشخص » فهو مجموعة أو هيئة منتظمة
من الحوادث مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً علياً دائماً . أضف إلى هذا
أن كل « حادثة واقعية » مرتبطة بكل حادثة واقعية أخرى فى الكون

وعليه
واقعية
هذا
« كل
« الم
أولية
« الح
بالروا
الروا
فيه
دخو
كل
عالم
و
كل
نحو
الط
وكل

وعليه فالعالم نظام واحد محكم الاتصال والتركيب ، مؤلف من « حوادث واقعية » : أو هو « سلسلة متصلة ، حلقاتها هذه الحوادث » . ومن أجل هذا الاتصال الذي في حلقات السلسلة الكونية أمكننا أن نقول إن « كل شيء في الكون واقع في كل زمان وفي كل مكان » . وليس « المكان والزمان » في نظر هويتهد (كما هو في نظر ألكسندر) حقيقة أولية مسلماً بوجودها ، بل هو شيء مركب من النسب الموجودة بين « الحوادث الواقعية » . أما نقط الاتصال بين الحوادث الكونية فيسميها بالروابط ، وهي في نظره روابط عليّة . فكل حادثة واقعية تتولد عن الروابط التي تربطها بالحوادث التي تسبقها في الوجود في الوقت الذي تتصل فيه بالحوادث التي تليها ؛ وهي فكرة تشبه فكرة « برغسون » في دخول الزمان للماضي في الزمان الحاضر . بهذا المعنى يصح لنا القول بأن كل « حادثة واقعية » خالدة خلوداً ذاتياً على الرغم من أنها واقعة في عالم التغيير .

وليس للإله معنى في مذهب « هويتهد » إلا أنه « وحدة العالم » و « مبدأ التكوين فيه » ؛ « فليس الإله نفسه بذات ، ولكن أصل كل ماله حقيقة ذاتية في الوجود » . « والعالم كثرة من الممكنات متجهة نحو الوحدة الكاملة » : « والإله هو وحدة التجلي الظاهر في الكثرة الطبيعية » - « هو محرك الوجدان ومبعث الآمال فينا من الأزل » : وكل شيء في الوجود متصل به .

ويرى هويتهد أن « موضوع علم الكسَمولوجيا^(١) الذي هو أساس الديانات كلها هو وصف القوة المحركة في العالم وتحولها على الدوام إلى تلك الوحدة الأبدية الدائمة ، ووصف جلال التجلي الإلهي القار في طبيعة الأشياء ، ذلك التجلي المتجه على الدوام نحو إيصال الكون إلى درجة الكمال وتحقيق الغاية منه بفناء القوى الكونية المتعددة فيه » . ولكنه يرى « أن هذه الحالة النهائية المستقرة لن يصل إليها العالم ولا الله ، لأنهما معاً في قبضة مبدأ ميتافيزيقي أول ، هو مبدأ التوجه الدائم نحو الخلق الجديد » .

(٣٤) مور^(٧) G. E. Moore ولد سنة ١٨٧٣

أعلن توماس ريد (١٧١٠ - ١٧٩٦) حرباً عواناً على غلاة « المثاليين » وفلسفتهم المعروفة باسم « سبيل الأفكار » ، فافتنى « مور » أثره لأن الفيلسوفين من أنصار مذهب « الذوق الفطري » . وفلسفة « مور » ناحيتان : سلبية وإيجابية . أما السلبية فهي اعتقاده أن المذهب العقلي أو المثالي لم يفلح حتى فيما يتعلق بحقيقة الأمور العقلية وحدها . ولهذا لا يرى مبرراً للإنكار ما يفترض « الذوق الفطري » وجوده من الحقائق المادية والعقلية على السواء . أما من الناحية الإيجابية فلم يزد « مور »

(١) وهو علم العالم ووصف تكوينه .

(٢) جورج إدورد مور عالم إنجليزي وأستاذ الفلسفة في جامعة كمبرج ومن المنخرجين فيها . ومن أخص صفاته مقدرته العجيبة على التحليل الفلسفي الدقيق ونقده لآراء غيره من الفلاسفة ، وهي ظاهرة لانكاد تخفى على قارئه . كسبه لا سيما كتابيه « دراسات في الفلسفة » ، « أصول الأخلاق » (المترجم)

كثيراً على أن ذكر طائفة من القضايا التي استند فيها إلى الواقع واتخذها أساساً لمذهبه الخاص ومذهب « الذوق الفطري ». وتتلخص هذه القضايا فيما يأتي :

أولاً : لا مبرر للقول بأن كل حقيقة مادية مفتقرة منطقيًا ، أو من جهة علنها إلى حقيقة عقلية ما .

ثانيًا : إن الأشياء المادية موجودة بالفعل وقد وجدت في الماضي .

ثالثًا : إن كثيراً من النفوس موجودة بالفعل وقد وجدت في الماضي كذلك .

غير أن « مور » ربما خالف أصحاب « الذوق الفطري » في أنه لا يرى سبباً للاعتقاد بوجود الله أو ببقاء الروح الإنسانية بعد فناء البدن . ثم إنه فوق ذلك كلف بالبحث في مسألة المعرفة الإنسانية ، وهو يُعنى عناية خاصة بالتحليل الدقيق للقضايا التي يسلم بصدقها ؛ أي القضايا التي يمكن إدخالها إجمالاً تحت القضيتين الثانية والثالثة اللتين ذكرناهما . فهو يتساءل مثلاً ما هو المراد على سبيل التحقيق من قولنا « هذه يدٌ ؟ » ويقول إنني عند تحليلي لمثل هذه القضية أوقن بشيئين أعني أنني عند ما أعلم أو أحكم بأن مثل هذه القضية صادقة « أعلم يقيناً شيئين : أولهما أنه توجد دائماً حقيقة حسية هي موضوع القضية التي أنا بصدق البحث فيها . . . وثانيهما أن ذلك الذي أعلمه عن هذه الحقيقة الحسية أو ذلك الذي أحكم بصدقها عليها ليس (بوجه عام) « إنه هو نفسه يدٌ أو كذا أو كذا » . « بعبارة أخرى إنني أعتقد — مستعملاً عبارة الفلاسفة

القائلين بأن الإدراكات الحسية رموز لحقائق وراءها - أنني لا أدرك
يدى إدراكاً مباشراً ، ولكنني أدرك شيئاً ما هو رمز لها : أعني جزءاً
معيناً من سطحها » . أما العلاقة الحقيقية بين ذلك الجزء المدرك بالحس
الذي هو رمز لليد وبين اليد نفسها فأمر لا يدعى « مور » أنه يعرفه ،
ولكنه غير مقتنع في الوقت نفسه بالتفسيرات المختلفة التي قال بها
الفلاسفة في هذا الموضوع .

وبمثل هذا يتكلم عن القضية الثانية : أعني « أن النفوس موجودة
بالفعل وأنها وجدت في الماضي » فهي قضية يوقن بصدقها ولكنه
لا يستطيع تحليلها تحليلاً صحيحاً .

(٣٥) بروض^(١) C. D. Broad ولد سنة ١٨٨٧

اشتهر « بروض » على الأخص بنظريته المعروفة « بنظرية الموضوعات
الحسنة » وهي تتلخص في أن كل إدراك حسي يتضمن ثلاثة أشياء :
الأول وجود حالات عقلية تسمى بالإحساسات ؛ الثاني أن لهذه
الإحساسات موضوعات تسمى بالمحسّات ، وأن هذه المحسّات وجودات
ذاتية جزئية مثل السطوح الملونة التي نراها والسطوح الساخنة التي

(١) تشالز بروض من أساتذة الفلسفة في جامعة كمبردج ومن المتخرجين فيها .
ينتمي إلى المدرسة الفلسفية الحديثة في إنجلترا التي منها « رسل » و « مور » وهي
المدرسة التي تعنى بعناية خاصة بمباحث المعرفة وموقف العقل الإنساني من الكون وتستند
في بحثها على نتائج علم النفس الحديث من جهة وعلى نتائج العلوم الطبيعية والرياضية من
جهة أخرى . وللأستاذ بروض تأليف كثيرة في منطق الاستقراء وفي الأخلاق وما
بعد الطبيعة .
(المترجم)

نلمسها والأصوات التي نسمعها والروائح التي نشمها وهكذا . ولهذا الموضوعات المحسّنة بالفعل صفات الشكل والحجم والصلابة واللون وجهازة الصوت والبرودة وما إلى ذلك . ثالثاً أنه يوجد في العالم الخارجي أعيان مادية دعانا إلى الاعتقاد بوجودها ، وبأنها ماثلة أمام حواسنا . وجود الموضوعات المحسّنة ومثولها أمام عقولنا في عملية الإحساس .

أما الصفات التي نحملها عادة على الأعيان المادية فهي مستمدة دائماً من صفات الأشياء التي نحسها منها ومتصلة بها . نعم إن هذه الصفات لا تتفق في كل حالة فتتكون في المحسّات هي هي في الأعيان الخارجية التي نحسها فيها ؛ فإننا إذا نظرنا إلى شيء مثلاً نظرة عمودية فأحسنا استدارة ، حكمنا بأن الشيء المنظور إليه مستدير ؛ أما إذا نظرنا إلى شيء من زاوية مائلة فأحسنا سطحاً بيضياً الشكل ، فإن هذا الإحساس قد يحملنا على الاعتقاد بأن الجسم المنظور إليه مستدير الشكل أيضاً . ونحن لا نعتني عادة بالمحسّات من حيث هي محسّات بل بالأعيان المادية التي هذه المحسّات مظاهر لها ، لأن الذي يُعيننا أو يعوقنا في ميدان النضال في الحياة إنما هو أعيان الموجودات لا المحسّات التي ندركها منها .

هذه هي نظرية « بروض » في المعرفة ، أما في مذهب الميتافيزيقي — وخاصة في العلاقة بين الحياة والمادة — فهو ممن ينتصرون لنظرية « التطور الفجائي » التي سبق شرحها^(١) . يقول أتباع هذه النظرية إن في العالم كائنات كل منها « كلٌّ » مؤلف من عناصر أو أجزاء مرتبة على

(١) راجع فلسفة لويد مورغان في هذا الكتاب .

هيئة خاصة ، ولا يمكن معرفة خواص كل من هذه الكائنات من العلم
بخواص الأجزاء التي تتألف منها لو أخذ كل من هذه الأجزاء على حدة ،
أو لو أخذت الأجزاء كلها مجتمعة في كائن واحد . ولا يكفي لفهم الكائن ،
أو « الشكل » الذي يبرز إلى الوجود فجأة ، أن نفهم وظيفة كل جزء
من أجزائه على انفراد ، بل يجب أيضا معرفة القوانين التي يسير بمقتضاها
« الشكل » عند اجتماعه في هيئته الخاصة . والحالة الثانية التي عليها الكائن
مستقلة عن الحالة الأولى . ويقول « بروض » إن هذا النوع من البروز
أو الظهور الفجائي مشاهد في الكائنات غير العضوية ؛ فإننا لا نستطيع
أن نستنتج خواص المركبات غير العضوية من خواص العناصر المختلفة
التي تتألف منها هذه المركبات . والأمر أعجب وأغرب في الكائنات
الحية ، فإنه يظهر أن في الكائنات العضوية التي من نوع واحد نزعة
طبيعية عامة تدفع بها إلى الانضمام بعضها إلى بعض تحت الظروف
الملائمة بحيث يظهر عن ذلك الانضمام مركبات جديدة من نوع أرق .
ويظهر في كل دور من أدوار هذا التطور كائنات جديدة وخواص
جديدة ؛ بل يظهر في كل دور تهيم أو استعداد جديد لتطور الكائن
إلى الدور الذي يليه وهكذا . ولنظرية التطور الحيوي الفجائي
ميزة خاصة إذا قورنت بنظرية « الحيوية الميكانيكية » ، وذلك أنه
يمكن الاستغناء بالأولى عن افتراض وجود قوة إلهية فعالة في الكون
بخلاف الثانية .

أما العلاقة بين الجسم والعقل فهي في نظر « بروض » علاقة

وثيقة مستحكمة ، ذلك أن العقل يظهر أثره في الجسم في الأحوال النفسية الإرادية ، ويظهر أثر الجسم في العقل في حالات الإحساس . أما إذا لم نصف العلاقة بين الجسم والعقل بأنها علاقة تفاعل مشترك . فذلك لأن كلمة « تفاعل » لا تعبر بالضبط عن معنى العلاقة التي بينهما .

ومما يسترعى النظر في فلسفة « بروض » بوجه خاص ما يسميه « بالعوامل النفسية » ؛ فإنه يرى في بعض الظواهر النفسية الشاذة دليلاً كافياً يبرر اعتقاده بأن العقل ليس مجرد ظاهرة عارضة^(١) من ظواهر البدن مفتقرة في وجودها إليه وحده . ولذلك يرى أن العقل جوهر مركب من شيئين : جسم حي ، وشيء آخر يسميه « بالعامل النفسى » . والعامل النفسى ليس عقلاً في ذاته ، ولكنه باتصاله بالأجسام يظهر عنه عقول مختلفة . زد على ذلك أن العامل النفسى مستقل عن الجسم بحيث يمكن وجوده دون الجسم ، بل يمكن أن يتصل اتصالاً وظيفياً بجسم شخص حي — كما هو الحال في « الوسيط » — فإنه يظهر في « الوسيط » جميع صفات الشخص الميت الذى حل هذا العامل النفسى بدنه يوماً ما . وهذه النظرية لا تدع مجالاً للقول بإمكان بقاء العقل البشرى كاملاً بعد مفارقتة للبدن .

أما آراء « بروض » في منزلة العقل من الطبيعة ومستقبله فيها فلم

(١) يشير إلى نظرية « الظاهرة العارضة » Epiphenomenalism وهي النظرية التي تفسر العلاقة بين الجسم والعقل على أساس أن العقل ظاهرة عارضة للمخ وليس لها أثر ما في المخ نفسه الذى هو أصلها بل هي أشبه بشعلة عارضة تقذفها الآلة البخارية .
(المترجم)

تحدد أو تتكيف بعد ، ولكنها لا يظهر فيها روح التفاؤل . فهو يرى
أن دوام تطور العقل ورقية لا هو بالأمر المستحيل ولا بالضروري ؛ أما
إمكان تطوره وتقدمه فيتوقف على علمنا بالعقل والحياة علماً دقيقاً ،
وهيمننا عليهما من قبل أن يهدم كيان حيائنا الاجتماعية عاملان : أولهما
جهلنا بمقائق النفس والحياة ، وثانيهما تزايد علمنا بالمسائل الطبيعية
والكيميائية ويستحيل التنبؤ الآن بأيهما الذي كتب له الفوز والغلبة
في ميدان النضال : الحياة وعلم النفس ، أم الفناء وعلم الطبيعة ؟ غير أن
الفناء وعلم الطبيعة قد تطعا شوطاً بعيداً في الميدان وتقدماً بذلك الشوط
على الحياة وعلم النفس .

(٣٦) الأَرل رِصِل^(١) Earl Russell وُلد سنة ١٨٧٢

يطلق « رِصِلُ » على فلسفته أسماء كثيرة ؛ فيصفها أحياناً « بالمذهب
الذري المنطقي » ، وأحياناً يسميها « مذهب الوحدة المتعادلة » ، ومذهب
الكثرة ، ومذهب الواقع . وسترى أنها تحتوي هذه العناصر كلها .
ويحاول « رِصِلُ » — جرياً على عادة الفلاسفة التجريبيين من
الإنجليز — أن يحلل العالم المحسوس إلى عناصره الأولية ، ويطلق على

(١) الأَرل برتراند رِصِل من أسرة من أعمق الأسرات الإنجليزية نسباً وزعيم
الفلسفة الإنجليزية في العصر الحاضر : غريب الأطوار كثير التطرف في آرائه الاجتماعية
ولهذا السبب أقصى عن جامعة كمبرج التي كان أستاذاً بها . ولا تفت شهرته العالمية
عند الفلسفة وحدها ، بل هو عالم طبيعي ورياضي كبير ، وكان اجتماعي وقياسوف
من فلسفة الترية . وله في كل هذه الميادين مؤلفات كثيرة ولكن أهمها الرياضية
والمنطقية والفلسفية .
(المترجم)

هذه العناصر اسم « الذرات » . ولكنه يتجنب الخطأ الذي وقع فيه جون لوك وأتباعه باعتقادهم أن السكل المركب ليس سوى مجموع الأجزاء التي يتركب منها والآثار العلية التي يحدتها كل جزء من هذه الأجزاء على حدة . ولذلك يرى « رسل » أن « المركب » قد يفقد خواصه العلية إذا حُلل إلى العناصر التي يتركب منها . ولكنه يقول على الرغم من هذا إن « المركب » يتألف بالفعل من أجزاء ، ولكنها أجزاء مرتبة على نظام خاص . ومن أجل ذلك يطلق على فلسفته اسم « المذهب الذري المنطقي » (١) .

وليست الفلسفة في نظر « رسل » دراسة يراد بها الاستعاضة عن العلوم ، بل هي دراسة متممة للعلوم بما تفترض من الفروض النظرية عن طبيعة العالم بأموره . ولما كانت العلوم و « الذوق الفطري » كلاهما يفترض وجود كثرة من الأعيان الخارجية والحوادث الطبيعية ، مستقلة في وجودها عن أي عقل مدرك لها ؛ ولما لم يقدم دليل مقنع على إبطال دعواهما ، قال « رسل » إن في العالم الخارجي حقائق كثيرة مستقلة عن العقل . وهو بهذا القول ينتصر لمذهبين فلسفيين : مذهب الواقع ، ومذهب الكثرة . ولكن ما هي طبيعة العناصر الحقيقية التي يتركب منها العالم ؟ أما هو فينكر المذهب المثالي القائل بأنها عناصر نفسية ، وإن كان يعتقد

(١) فهي « ذرية » لأنها تثبت وجود العناصر الأولية التي يتركب منها العالم المحسوس ، ومنطقية لأنها تقرر أن هذه العناصر يتركب منها « السكل » الذي هو السكون على نظام منطقي خاص ، لأن العلاقات التي ترتبط بها أجزاء السكون علاقات منطقية .
(المترجم)

في الوقت نفسه أنه فرض محتمل الصدق . ولكنه أشد إنكاراً المذهب
المادى ، لا سيما أنه تبين من الأبحاث العلمية الحديثة أن المادة ترجع في
نهاية تحليلها إلى مجرد إشعاع أو طاقة موجية . أما هو فيفضل أن يعتبر
الأصل الذى يتركب منه العالم شيئاً لا هو بالمادى ولا هو بالعقلى . ويصفه
بأنه أصل « محايد » أو « متعادل » بالنسبة إلى المادة والعقل ؛ وهذا
الأصل الذى يتركب منه العالم جميعه هو في نظره من نوع واحد ، ويعنى
به « الحوادث » .

ولا يتعارض مذهب الوحدة — كما يفهمه « رصل » — مع مذهب
الكثرة ؛ فإن الوحدة عنده هي وحدة في الكيف ، على حين أن الكثرة
التي يقول بها إنما هي كثرة في الجوهر . بعبارة أخرى يعتقد « رصل »
أن العالم كله مركب من نوع واحد من الهيولى . ولكنه يعتقد إلى جانب
هذا أن في العالم عدداً عظيماً من الحوادث كل حادثة بسيطة منها وحدة
مستقلة (عقلاً) استقلالاً ذاتياً . وهالك نص عبارته : « يتكون العالم من
جملة من الموجودات لا ندري إذا كانت متناهية أو غير متناهية في العدد ،
مرتبطة بعضها ببعض بعلاقات مختلفة ، وربما كان لها أيضاً كيفيات
مختلفة : وهذه الموجودات هي التي نطلق عليها اسم « الحوادث » .

أما فيما يتصل بمسائل الحياة العملية وقيمها ، فإن « رصل » ينظر
بعين الإزدراء إلى طريقة الوعظ المستند إلى النصوص^(١) تلك الطريقة

(١) يعنى بها الطريقة التي كان يلجأ إليها رجال الدين بأن يتخذوا نصاً من نصوص
الكتاب المقدس ويحمله أساساً يتناولونه بالشرح والتعليق ويستنبطون منه مبادئ
الدين وتعاليمه من غير أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه . وقد ورث بعض الفلاسفة هذه
الطريقة عن رجال الدين فاستخدموها في شرح مسائل الأخلاق . (المترجم)

التي ورثها الفلاسفة عن رجال الدين ؛ ويرى « أن الفلسفة لا تستطيع
بنفسها أن تعين الغايات من الحياة ، وإن كانت تستطيع أن تحررنا من
قيود التحيز والتحزب ، ومن تشويه الحقائق الذي يورثه قعر النظار » .

(٣٧) ما كتَجَرَّتْ^(١) J. E. Mc. Taggart ١٨٦٦ - ١٩٢٥

كان « ما كتَجَرَّتْ » في رأيه في ماهية المعرفة من أنصار المذهب
الواقعي ، وفي رأيه في ماهية الوجود من أنصار الفلسفة المثالية . أما المعرفة
فهى في نظره الاعتقاد الصحيح . ويكون الاعتقاد صحيحاً إذا طابق الواقع ؛
أى إذا طابق شيئاً ما يكون ذلك الشيء أمراً وجودياً . وليس المراد بنسبة
المطابقة نسبة التماثل ، ولكننا لا نستطيع أن نحددنا بأكثر من ذلك .
والوجود والحقيقة في مذهب « ما كتَجَرَّتْ » صفتان لا تقبلان
التعريف : وكل ماله وجود فهو حقيقى بالضرورة ، ولكن ليس من
الضرورى أن كل ما هو حقيقى يكون أمراً وجودياً ؛ فإن كصفات الأشياء
ونسبها من حيث هى كصفات ونسب ، حقائق فى ذاتها من غير أن يكون
لها وجود . أما الكيفيات والنسب التى للأشياء الموجودة بالفعل فيمكن
القول بأنها موجودة . وينسب « ما كتَجَرَّتْ » وجود الزمان والمادة
وما يقع عليه الحس . لأنه يعتقد أن العالم روحى مركب من وحدات

(١) عالم بريطانى كان أستاذاً للفلسفة بجامعة كمبردج . عنى بدراسة هيغل خاصة
وألف وحاضر فيها كثيراً ولم تخل فلسفته من التأثر بالفلسفة الهيغلية وبالفلسفة المثالية
بوجه عام . مات قبل أن يتكامل نضوجه الفلسفى .
(المترجم)

روحية مرتبة في نظام أولى بسيط أو في أكثر من نظام من هذا النوع .
وجوهر هذه الروحانيات — أو هذه النفوس — ينحصر في أنها تعقل
ذاتها أو غيرها ، وهو تعقل يصحبه شعور وجداني إرادى ، ويُنكر أيضاً
أن العالم مخلوق ، لأن كل مخلوق واقع في الزمان ولا شىء من العالم واقع
في الزمان . ثم يزيد على ذلك بقوله إن مظاهر التدبير ، أو المظاهر التي
تدل على وجود الغاية في الكون ، لا تدل على أن العلة الممكنة في هذا
التدبير هي عقل شاعر لا غيره ، لأنه يرى أن جانباً عظيماً من النظام في
الكون ومن الاتجاه نحو الخير تابع لطبيعة الوجود ذاتها .

(٣٨) سنطيانا ^(١) G. Santayana وُلد سنة ١٨٦٣

انحدر من أصل إسباني ، ولكنه اليوم شاعر أميركا الفيلسوف .
ويمكن وصف فلسفته بأنها « واقعية نقدية » وإن لم يكن ذلك وصفاً
دقيقاً لها من جميع وجوهها .

ويسلم « سنطيانا » بوجود حقائق وراء الموجودات التي ندرکها ،
ويرى أنه لا سبيل إلى إدراك العقل لهذه الحقائق إدراكاً مباشراً ؛ والذي
يدفعنا إلى التسليم بوجودها هو « اعتقاد غرزي » فينا ، لأنها أمور

(١) جورج سنطيانا ولد في مدريد سنة ١٨٦٣ ثم ذهب إلى أميركا وعنده
من العمر تسع سنين . تعلم في جامعة هارفارد وبعد حصوله على درجته العلمية عين
مدرساً فيها : ولكنه مل الحياة في أميركا وتناقت نفسه إلى العيش في جو هادى
والبعد عن تلك الحركة الدائمة الصاخبة ، فذهب إلى كمبردج وظل بها نحواً من سنة
ثم طاف كثيراً من بلاد انكلترا وفرنسا . وهو أكبر شاعر فيلسوف تفخر به أميركا
اليوم : وفلسفته هي فلسفة الشعر والجبال والدين .
(المترجم)

ليست في متناول إدراكنا . أما الذي ينكشف لنا في الإدراك فيتألف من صور ذهنية وأفكار ومظاهر مختلفة لسطوح أجسام ، وصفات عامة لها . وهذه كلها أمور ننسبها إلى هذه الحقائق المجردة التي لا تقع في محيط إدراكنا . ويطلق « سنتيانا » على الصور الذهنية والأفكار وغير ذلك مما ذكرناه اسم « الماهيات » (essences) أو الجواهر . وعلى هذا فكل ما يصوره الحس من الصور المعهودة لنا ، وكل النظريات العلمية والمعتقدات الدينية إنما هو من هذا العالم — عالم الجواهر . ويمكن اعتبار هذه الأشياء كلها — أي النظريات العلمية والمعتقدات الدينية الخ الخ — أساليب مختلفة ، وإن كانت غير متناقضة ، للتعبير عن حقيقة واحدة فوق طور الإدراك .

ويعتقد سنتيانا أن القول « بالمادية » فرض يستمد صحته من العرف وأن الدين قصة خرافية ابتدعها الضمير ، وأن الشكل قصة عالم فالإحساسات أحلام تمر سراعاً ، والإدراكات الحسية أحلام يستطيع العقل أن يُبقيها ويزيد فيها طوع إرادته ؛ والعلوم أحلام جردها العلماء عن مادتها ، وضبطوها وقاسوها وجعلوها تتناسب تناسباً دقيقاً مع ظروفها ويلزم من هذا أن المعرفة دائماً جزء من الخيال من حيث اصطلاحاتها ومصدرها ، ولكنها صارت بفضل نشأتها وبفضل الغرض المقصود منها تذكرة أو دليلاً يرشد الإنسان إلى ما في الطبيعة من مصادر إسماعله .
نم إن « سنتيانا » يرى أن الحياة العقلية بأسرها وليدة الحياة الحيوانية ، وأنها قد خضعت دائماً لتأثيرها في أحضان الطبيعة ؛ وأن

الأفكار الإنسانية ليست سوى رموز وإشارات لها مغزى وقيمة ،
أو هي كما يقول « نغمات داخلية تنطق بها عواطف الإنسان كما تنطق بها
فنونه » . وتصبح هذه الأفكار معقولة لسببين : الأول لما فيها من
الانسجام الذاتي ؛ والثاني لأنها تطابق الحقائق الخارجية المتحققة بالفعل
أو المحتملة الوقوع .

والعقل البشرى في نظر « سنديانا » عقل شعري في أصل جبلته .
والحكمة هي في أن يواجه الإنسان الأمور بشعر باسم غير حاسب لأي
حادثة حسابا . وليس للعقل عنده أثر عملي لأنه مجرد ظاهرة عارضة :
« فوظيفته أشبه بوظيفة الطفوس الدينية لأنه ينظر بعين ملؤها الرهبة إلى
ما يفتاب البدن من الأحداث الجليلة وما يعتره من الحظوظ » والخير
الحقيقي الذي في متدور الإنسان الحصول عليه ، هو في نظر « سنديانا »
اللذة التي يستمدّها الإنسان من أعمال عقله ، والسرور الذي يدخله إلى
نفسه ما تنتجه قريحته من ضروب الفنون .

(٣٩) الجنرال اسمطس^(١) General J. C. Smuts وُلد سنة ١٨٧٠

وضع « اسمطس » خلاصة لمذهب فاسفي سماه فلسفة « الكل »
وهو يعنى بهذا أن في طبيعة الأشياء نزعة متجهة على الدوام نحو تكوين

(١) فيلسوف وسياسي انجليزي : درس القانون في جامعة كمبردج وتقلد مناصب
وزارية كثيرة في جنوب أفريقية : منها وزير الحفانية ووزير الداخلية . اشترك في
حرب البوير وأبلى فيها بلاء حسنا ؛ وكان في سنة ١٩٣١ مديراً لجامعة سنت أندروز
باسكتلنده . ألف في الفلسفة وفي الشؤون الافريقية السياسية (المترجم)

هيئات منتظمة يسمى كل واحدة منها « كلاً » . و « الشكل » في نظره ليس مجرد جملة من العناصر أو الأجزاء مجتمعة في شيء واحد ، وإنما هو كأن له هيئته التركيبية الخاصة ، (أو له صورة خاصة كما يقول أرسطاطاليس) . ومن أجل هذه « الصورة » ، أو هذه الهيئة التركيبية كان « الشكل » استعدادات وقوى أعظم من تلك التي لأي مجموعة مؤلفة من أجزاء متشاكلية . ويقول « اسمطس » إن هذا الاتجاه نحو تكوين « الشكل » أمر مشاهد في جميع أنحاء الكون ، وهو في نظره الأساس الذي بنى عليه العلماء نظريتهم فيما يسمونه « بالتطور الإبداعي » أو « التطور الفجائي » ، تلك النظرية التي تتعارض مع نظرية الميكانيكية البحتة في الطبيعة .

ويرى اسمطس أن في العلوم الحديثة أدلة كافية تؤيد نظريته الفلسفية في « الشكل » . فالزمان والمكان مثلاً لا يعتبرهما العلماء اليوم كمتين متصلين متجانسين ، بل يعدونهما كمتين واحداً (هو المكان الزماني) منحرفاً ومنحرفياً له هيئة تركيبية خاصة ^(١) . وكذلك الحال في

(١) أي لا يعتبر العلماء الحديثون الزمان والمكان كمتين متصلين منتظمين يتغير كل منهما تغيراً منتظماً ويتخذ فيما متواصلة كما كان الحال من قبل ، بل يعتبرون الزمان والمكان كما واحداً ذا أبعاد أربعة يطلقون عليه « الزمان - المكان » أو « الكون الزماني المكاني » . أما فكرة انحناء « الكون الزماني المكاني » فأخوذة من فكرة انحناء السطح ، ولو أن انحناء السطح يمكن تخيله في الذهن بافتراض رسم السطح في الفضاء . أما انحناء « الكون الزماني المكاني » فن العيب محاولة تخيله على هذا النحو ، إذ أن السطح المنحني في هذه الحالة ذو أربعة أبعاد (هي الثلاثة المكانية والبعاد الزماني) فيحتاج في انحنائه إلى فضاء تزيد أبعاده عن أربعة وهذا ما لا يستطيع =

المادة ، فإن العلماء الحديثين يفسرون تركيبها تفسيراً أدق وأوفى .
ويبحث علم الكيمياء في أنواع العناصر المختلفة التي هي نتيجة
ترتيب وتوزيع الذرات والجزيئات المادية في تراكيب مختلفة . على حين
يبحث علم الطبيعة في الذرات نفسها من ناحية اختلاف خواصها باختلاف
نظام الألكترونات والبروتونات التي تتركب منها على هيئة مجموعات
شمسية . فالمادة اليوم التي تُعتبر مجموعة من الشحنات الكهربائية ، غير المادة
بالأمس التي كان يعتبرها العلماء جسماً جامداً لا حراك فيه . زد على ذلك
أن وجهة النظر الحديثة في المادة من شأنها أن تقرب مسافة الخلف بين
المادة غير الحية والمادة الحية (البروتوبلازم) : فإن الخلية تختلف عن الذرة
في أنها أكثر تعقيداً وأدق في تركيبها ووظيفتها ، وبما بين أجزائها من
التضامن في الفعل . ذلك التضامن الذي يحفظ على الخلية كيانها العام ؛
وهذه كلها خصائص لا وجود لها في الذرة . على أن هذا القول ليس قاصراً
على الخلية الواحدة ، بل هو أصدق في تطبيقه على الكائنات الحية التي
تتركب من ملايين من الخلايا .

وكما أن « الشيء » في عرف أصحاب « النظرية النسبية » ليس إلا
مجموعة حوادث يتألف منها نظام خاص ، كذلك الكائن الحي ليس إلا
شظراً من التاريخ مجتمعة حوادثه في كائن واحد . ولا نغني بالتاريخ هنا

= العقل أن يتخيله . أما طريقة الرياضيين في تفكيرهم في هذا الموضوع فبنية على تعميم
المعادلات الرياضية لانحناء السطح ذي البعدين — بشكل منطوق بحت — بحيث تنطبق
هذه المعادلات على السطح ذي الأربعة الأبعاد الذي هو السكون الزماني المكاني .
(المترجم)

الجزء الحاضر منه فحسب ، بل جزءاً كبيراً من الماضي والمستقبل كذلك .
و «الـسـكـل» الذي يلي السكائن الحى فى درجة الرقى فى نظر « اسمطس »
هو العقل . وتمتاز العقول (أو الآلات النفسية كما يسميها) بأن مركز
التدبير فيها هو « الشعور » . وبأن لها قوة على التجديد ذات أثر بعيد
فى الحياة . وأرقى أنواع « السكل » التى نعرفها هو « الشخصية » التى
أهم مميزاتا الحرية السكاملة والقدرة على التجديد .

وللعالم فى نظر « اسمطس » صفتان متناقضتان : « الميكانيكية »
البحثة ، وحرية التولد . وتوجد « الميكانيكية » حيث تحدث الأجزاء
المجتمعة فى شىء من الأشياء آثارها بحيث يكون الأثر المتجمع مساوياً
لمجموع الآثار الفردية التى تحدثها الأجزاء إلا أن النزوع نحو « السكل »
— الذى أسلفنا القول فيه — وماله من خاصية الخلق ، فى تغلب دائم
على الميكانيكية البحتة فى عملية التطور العام . فإذا وصلنا إلى مستوى
العقل أو مستوى الشخصية أُلْفِينَا التفسير الميكانيكى البحت لا يفتى
فتيلاً . ولسكنا مع هذا ينبغى ألا نعتقد أن العقل والحياة عاملان جديدان
بل الذى يلزم اعتقاده هو أن الحياة والعقل والشخصية أنواع من
« السكل » المادى المركب . يلى كل منها الآخر فى سلسلة التطور من
غير أن يحدث اللاحق منها اضطراباً أو فساداً بالسابق الذى يستند إليه
فى تطوره ؛ إذ كل حلقة جديدة فى سلسلة التطور قائمة على أعقاب الحلقات
القديمة التى تسبقها غير متنافية مع وجودها . ومن هذا يتبين أن العالم
بأسره مدفوع بطبعه إلى الانحراف عن طريق الميكانيكية البحتة ، ومتجه

نحو تكوين « الكل » ، وهذا هو المثل الأعلى الذي يسمى العالم بأسره إلى تحقيقه . وبتمحيقه تتحقق منه غايته .

أما الخير الأعظم ، أو الخير المحض في فلسفة « اسطس » فهو أن يحقق الكائن كماله الذاتي تحقيقاً يتجلى فيه الحرية والانسجام التامان ، وهو يرى أن النزعة الفطرية نحو تكوين « الكل » كفيلة بتحقيق المثل العليا في الحياة — وهي السعادة والحق والخير والجمال ، لأنها كلها أمور متأصلة في طبيعة الأشياء تدعو إليها تلك النزعة السابقة .

الفصل العاشر

الوفاء بين العلم والفلسفة والدين

في العصر الحاضر

قد تبين مما ذكرناه إجمالاً عن فلسفة المحدثين والمعاصرين ما في هذه الفلسفة من حياة قوية فتيمة وما فيها من فكر ناطق بروح الجيل الحاضر. ولكن قد يتهم ساخر بقوله إن هي إلا ترجيع لصدى أصوات الفلاسفة السابقين ، وإن هي إلا بقايا أفكارهم مع قليل من التحوير والتغيير . وقد يحلل ذلك الساخر المذاهب الفلسفية الحديثة إلى عناصرها ليبين أنها في صميمها مزيج من الأفكار مستمد من فلسفة هرقليط أو بارمنيديس ، أو أفلاطون أو أرسطو ، أو ديكارت أو اسبنوزا ، أو لوق أو لينتز ، أو كنت أو هيغل أو شلنج أو شوبنهاور . بل ربما زاد على ذلك فوجه إلى الفلسفة برمتها انتقاداً طالما رده الناقمون منها ، أعني أن التفكير الفلسفي راكد لا يتحرك ولا يتقدم .

ولكننا لا نرى مبرراً لمثل هذا الموقف الذي يقفه بعض النقاد من الفلسفة الحديثة ، ولا لازدراءهم إياها ، وإن كنا قد نسلم ببعض الاعتبارات التي يستندون إليها في دعواهم . انظر إلى تاريخ الحضارة

الإنسانية نفسه ، فإنك لن تجده إلا شطراً قصيراً جداً إذا قسمته بتاريخ
الأرض التي نعيش عليها ، أو بتاريخ السكون الذي هذه الأرض جزء
منه ؛ فلقد بلغ بتاريخ الحضارة الإنسانية قصره إلى حد أن وصفه بعض
العلماء بأنه « تاريخ إقليمي أو موضعي » . ثم اعتبر بعد ذلك تاريخ
الفلسفة منذ نشأتها ، فلن تجده إلا جزءاً خاصاً من ذلك « التاريخ
الإقليمي أو الموضعي » يصف لنا ناحية معينة منه ، ظهر أول ما ظهر منذ
خمسة عشر قرناً ، وقضى ما يربى على نصف هذا الزمن تحت عوامل الضغط
والاضطهاد . زد على ذلك أن المسائل الفلسفية ليست من السهولة بحيث
يمكن حلها أو تفسيرها تفسيراً يُجمَعُ عليه عامة الفلاسفة ؛ فهي تختلف
في هذا الصدد عن المسائل العلمية التي يكاد يجمع جمهور العلماء على تفسيرها
لأن في استطاعتهم تحقيق ما وصلوا إليه من نتائجها تحقيقاً عملياً ؛ وهذا
التحقيق غير ميسور للفلاسفة . لا ، بل إننا نرى أنه كلما صلحت طائفة
من المسائل للبحث أو التحقيق العملي استقلت عن الفلسفة التي هي
أصلها ، وأصبحت علماً منفصلاً عنها . وبهذه الطريقة بقيت الفلسفة على
الدوام الميدان الذي تُبَحَثُ فيه المسائل النظرية العميقة التي يصعب حلها
حلاً مرضياً مقنعاً ؛ ولكنها من ناحية أخرى مسائل يعز على جمهور
الأذكياء من الناس أن يعضوا الطرف عنها أو يقفوا أمامها مكتوفي الأيدي .
ولما كان الزمان في تغير مستمر ، ونحن في تغير مع الزمان ، كان أقل
ما يفعله أهل عصر من العصور ، أن يصوغوا المسائل القديمة وحلول هذه
المسائل في قالب جديد يتفق مع الروح الفكرية والروح اللغوية لهذا

العصر؛ فإن المبالغة في طلب الابتكار، والغلو في الابتكار نفسه قد يغاب
شهما على خيرهما. أما الذي لا غنى للباحث في أي علم من العلوم عنه،
فهو معرفة تاريخ ذلك العلم؛ وربما كانت الحاجة إلى هذا أمس في الفلسفة
منها في أي علم آخر، فإن الفلسفة لا تفرق بين القديم والحديث في تاريخها،
بل تاريخ الفلسفة كله حديث.

ومن الأمور التي تسترعى نظر الباحث في فلسفة المحدثين والمعاصرين
بوجه خاص ما نراه من التآزر والتعاقد بين رجال العلم ورجال الفلسفة،
وهذه ظاهرة جديدة لا نكاد نرى لها أثراً في شطر كبير من القرن التاسع
عشر؛ فقد كان بين العلم والفلسفة شيء من الجفاء، وكان لذلك الجفاء
أثره السيء في كل من الاثنين على السواء، لأنه في ذلك العصر غلبت
الروح المادية على العلماء، وضعف للفلاسفة اعتبارهم للواقع. فنحن نرحب
اليوم بهذه الروح الجديدة، روح الموازنة والمواخاة بين العلم والفلسفة،
وإن كنا نشعر أن تغير وجهة نظر بعض العلماء قد لا يخلو من ضرر، فإن
الانتقال من المادية المتطرفة إلى الروحية المتطرفة كان سريعاً وخطائياً، وربما
كان أعظم سبب في ذلك الانتقال إدراك العلماء للمادة إدراكاً جديداً
كما أسلفنا، فإن القول بأن المادة الصلبة التي لا يمكن نفوذ الأجسام فيها
بمجرد شحنات كهربائية أو إشعاعات موجية، قد حمل بعض الناس على
الاعتقاد بأن المادة قد فقدت ماديتها وظهرت بمظهر روحاني جديد. وهذا
يذكرنا بقصة طريفة أخبر بها بعض كبار القساوسة عن فتاة ضلت طريق
الفضيلة، فلما سئلت عن طفلها الذي ولدته في الزنا أجابت، وهي تتوسل

في رفع العقوبة عنها ، « ما هو إلا طفل صغير جداً » ! (فلم يشفع لهذه الفتاة صغر حجم طفلها ، ولم يخرجها عن أنها زانية) كما أن المادة لم يخرجها عن ماديتها صغر حجم ذراتها ولا لطافة تركيبها : فهي لا تزال مادة لا عقلاً . زد على ذلك أن بعض كبار العلماء الحديثين مثل « ج . ج . طمسون » لا يسلّمون بالرأى القائل بعدم جوهرية المادة في جميع تفاصيله . وإفك لترى إلى جانب النظريات الحديثة في طبيعة المادة مبدأ آخر أصبح يسلّم به جمهور عظيم العلماء وهو المعروف بمبدأ « الإمكان الصرف » وقد كان للاعتقاد بهذا المبدأ أثر كبير في تغيير وجهة نظر بعض العلماء في طبيعة الكون وصبغها صبغة دينية ، وأصبح له اتصال وثيق بالآراء الحديثة بالمادة ، فقد وجد مثلاً أنه يستحيل معرفة طاقة^(١) الذرة وموضعها في آن واحد ، وفسر هذا بأن الألكترونات أو الذرات ليس لهما طاقة معينة ولا موضع معين ، وأن عدم تقيدهما ذاتي لهما . وقد استنبط العلماء من هذه الحالة الخاصة التي زعموا أنها تدل على محض الإمكان مبدأ عاماً أطلقوا عليه اسم « مبدأ الإمكان الصرف » ، واستند إليه بعضهم في إنكار العلّية في العالم الطبيعي ، بعد أن كانت فكرة « العلّية » عماد العلماء السابقين وأساس الفلسفة الميكانيكية .

وقد استغلّ « مبدأ الإمكان » في تفسير « الاختيار » في الأفعال

(١) ولفظ الطاقة هنا غامض غير محدود ، إذ الطاقة أنواع مختلفة منها ما يمكن معرفته ومعرفة « الوضع » في آن واحد وذلك مثل طاقة الوضع ومنها ما لا يمكن مثل طاقة الحركة . على أن القول بمعرفة الطاقة لسكل ذرة فيه شيء من التساهل في التعبير ، فإن المعروف ليس هو طاقة كل ذرة ، بل متوسط طاقة الذرة .

الإسانية الإرادية ، وفي تفسير المعجزات وما إليها من خوارق العادات ، فكان له بذلك وقع كبير ليس في نفوس رجال الدين فحسب ، بل وفي نفوس بعض العلماء الذين بدأوا يُعَنَوْنَ عناية خاصة بالتفكير الديني وأساليبه . غير أن مغزى هذا المبدأ الجديد وأهميته لا يزالان موضع بحث بعض العلماء ، ولذلك يعتبره « اينشتين » وغيره مجرد مخرج يلجأ إليه العلماء اليوم لجهلهم بحقيقة الأمر ، ويتوقعون العودة عاجلاً إلى فكرة جديدة قوية في العملية في دائرة البحوث العلمية .

ومن ناحية أخرى يرى العلماء أن الذرات يحصل فيها أنواع من التغير (كالتغير الحاصل بفعل التجزؤ في الذرة) في أوقات معينة ، وأن هذا التغير يجري على نسب ثابتة ، لذلك يعتمدون في تجاربهم وأبحاثهم على القوانين الاحتمالية التي يصلون إليها بحسابهم لهذه النسب الثابتة . وبدل اعتمادهم على هذه القوانين على وجود اطراد في وقوع الحوادث الطبيعية ، وعلى وجود مبدأ الضرورة أكثر من دلالاته على وجود الصدفة العمياء ، أو مبدأ الإمكان الصرف .

كان من نتيجة هذه الأبحاث العلمية النظرية التي لم نشر إلا إلى القليل منها ، أن اتجه بعض العلماء اتجاهاً جديداً لا يمكن وصفه إلا بأنه نوع من التصوف ؛ فهم يصفون العلوم مثلاً بأنها ليست سوى جملة من الرموز ، ويتخذون من هذه الرموز أداة يفسرون بها العالم ، فيذهبون بما فيه من جمال وجلال ويصورونه بصورة جوفاء لا حياة فيها . وهذه وجهة نظر من طبيعتها أن تؤدي إلى الاعتقاد بأن الوجود الحقيقي عقلي

مثالى : أى أن العالم بأسره يُرَد في نهاية التحليل إلى الفكر أو أنه هو الفكر . أما أن هؤلاء العلماء قد قصدوا كل هذا بالفعل فهذا أمر لا نستطيع الجزم به ، فإننا نجد بعضهم يصف العالم بأنه « فكر » في الوقت الذى نجده هو نفسه يصفه بأنه « نور » : والجمع بين الوصفين يدل دلالة صريحة على مقدار الغموض الناشئ عن عدم الدقة في تفكير هؤلاء العلماء . والظاهر أنهم لا يدركون تمام الإدراك معنى « الرمزية » التى يتكلمون عنها ؛ فإن الرمز دائماً شىء من نوع ما يدل على شىء آخر من نوع آخر .

نعم يقتضى استعمال الرموز وجود الفكر ، فإن الفكر وحده هو الذى يرمز بشىء ليدل به على شىء آخر ، ولكن استعمال الرموز لا تقتضى وجود الفكر وحده ، فإن الشىء المادى لا يصلح أن يكون رمزاً لشىء آخر إذا لم يكن فى الحقيقة مادياً . وكثيراً ما وقع العلماء فى حيرة عظيمة وأحاط بأساليبهم الغموض بسبب إفراطهم فى استخدام الرموز فى العلوم الطبيعية وفى وصف الطبيعة ، ذلك الوصف الذى ربما قصدوا به فى الأصل الإشارة إلى معانى الأشياء الرموز إليها .

ولعل ما قدمناه من الملاحظات يكفى فى تفسير ذلك الوفاق غير المعهود الذى يُعلن وجوده اليوم صراحة بين العلم والدين . ولا يشك شك فى أن هذه الروح الطيبة أجدى على العلماء ورجال الدين وأنفع من روح البغضاء التى استحكمت بين الفريقين ردحاً طويلاً من الزمن ، وإن كنا نرى أن مثل هذه الروح الجديدة قد لا تخلو من شىء من الخطر : فإن

تاريخ العلم شاهد بأن العلم قد أتى بأطيب ثمره عندما اتخذ المذهب الطبيعي رائده ومثله الأعلى ، وأنه انحط عن هذا المستوى وأصابه العمق والجذب عند ما وقع تحت تأثير التالوجيا والميثولوجيا (علماء اللاهوت والخرافات) . فلندع العلم إذن يجرى مجراه ويسير في طريقه الخاص لا يأبه بابتسامات رجال الدين كما كان قبل اليوم لا يأبه بعبوسهم ، فقد كان لغاليليو وديكارت وبويل ونيوتن شعور ديني عميق (بل كان بعضهم دينياً إلى درجة أنه كاد يكون اعتقاده خرافياً) ؛ ومع هذا فقد حرصوا كل الحرص على أن يضعوا حداً فاصلاً بين علمهم وعقائدهم الدينية ، وأن يمضوا في أبحاثهم العلمية على أسس طبيعية بحثة . فهم لهذا خليقون بأن يحذو حذوهم رجال العلم اليوم الذين ربما كانت عقائدهم الدينية أقل ثباتاً وأكثر غموضاً من عقائد هؤلاء العظماء الذين سبقوهم .

على أننا يجب ألا ننسى أن كلمات المدح التي يثني بها بعض العلماء على الدين بوجه عام قد يؤوؤها رجال الدين تأويلاً خاصاً يستغلونه في المدافعة عن أصل من أصول المعتقدات الدينية أو مسألة من المسائل العملية التي قد لا يوافق عليها العلماء أنفسهم ؛ وبهذه الطريقة قد يقف رجال العلم حجر عثرة في سبيل رقيه والسير به في الطريق التي سار فيها وتقدم ، (ولو تقدماً بطيئاً ، تحت تأثير عوامل كان من أهمها العلوم) ، منذ زمن « برونو » و « غاليليو » و « سرفيتوس » .

أما العلم فيرجع السر في تقدمه العجيب إلى أسباب أعظمها التخصص أو توزيع المسائل العلمية على العلماء ، وليس مما يتفق مع الروح العلمية ،

ولا مع التقاليد التي درج عليها العلماء أن يكونوا من شيوخ الدين ولا من الفلاسفة . نعم إن طائفة من أعضاء « الجمعية الملكية » في لندرة قد نشروا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر مجموعة من الرسائل في سلسلة مقالات تعرف بمقالات « بردج ووتر »^(١) عن قدرة الله وحكمته وفضله وتبجلى هذه الصفات في العالم . وقد مضى الآن نحو قرن من الزمان ولا يزال الناس يعتقدون بوجود الله ويثقون « بالجمعية الملكية » على الرغم من هذه الرسائل . ولحسن الحظ لم تشجع هذه الحادثة الكثيرين من أعضاء « الجمعية الملكية » في العصر الحاضر على أن يكتبوا من المغامرة في الكتابة في مثل هذه الموضوعات .

وليس من شك في أن علماء اللاهوت والفلاسفة معاً في حاجة إلى تعلم الشيء الكثير من العلماء . فليعلمهم العلماء إذن ، وليقدموا لهم ما استطاعوا من خدمات جليسة على شريطة أن يعلموهم علماً لا فلسفة ولا لاهوتاً . وربما كان الفلاسفة المعاصرون أيضاً في حاجة إلى مثل هذا التحذير ؛ فإنه لما كان عدد كبير من الفلاسفة في بدء نشأتهم علماء في اللاهوت ، كان من الطبيعي أن تحسن العلاقات وتتوثق بين الفلسفة والدين ؛ وهذه ظاهرة نجد أثرها واضحاً جلياً في الجزائر البريطانية بوجه خاص ؛ فإن جمهوراً كبيراً من فلاسفتها من أكبر أنصار الدين والمدافعين

(١) نسبة إلى أرل بردج ووتر الثامن (١٧٥٦ - ١٨٢٩) : كان عالماً طبيعياً وأثرياً كبيراً وقد ترك في وصيته ثمانية آلاف جنيه تنفق على كتاب هذه الرسائل ، وهي مزيج من الفلسفة والعلم والدين نشرت بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤٠ (المترجم)

عن عقيدته . وربما كان السرف في هذا أن الظروف والمؤسسات العلمية
(مثل وقف جفورد) تشجع بالفعل على انتهاج هذه السبيل من جهة ،
وتعلى من قدر من ينتهجها من جهة أخرى . ولكن خير للفلسفة أن تتحرر
تماماً من ربة العبودية لعلم اللاهوت ، وأن توالى البحث في مسائلها
الكونية مستقلة بقدر ما تسمح به الضرورة عن كل مؤثر خارجي .

المصطلحات الفلسفية الواردة في الكتاب

ومرادفاتها العربية

A

Absolute	المطلق (تستعمل غالباً ويراد بها الله)
Absolute Experience (Royce : Bradley)	الإدراك المطلق
Absolute Good	الحير المطلق
Absolute Idealism	المذهب المثالي المطلق
Abstraction	المعنى المجرد
Abstract Universals	الكليات
Activity	الفعل (أن يفعل)
Affirmation	الإثبات : الإيجاب
Agnosticism	اللاأدرية
Altruism	مذهب الإيثار
Animal-faith	الاعتقاد القطري
Anthropomorphic	مشبه
Anthropomorphism	القول بالتشبيه
Apriori	أولى
Apriori judgments	الأوليات (من القضايا)
Assumption	دعوى
Atheist	ملحد
Atheism	الإلحاد
Attribute	صفة
Attributive Monism	القول بوحدة الصفات
Attributive Dualism	القول بانثنية الصفات

Attributive Pluralism	القول بتعدد الصفات
Automatic writing	الكتابة الآلية
Axiology	مبحث القيم
B	
Behaviour	السلوك
Being	موجود أو الوجود
Being in Consciousness	الوجود الذهني
Biotism	مذهب القائلين بالحياة
C	
Categories	المفولات
Cause	السبب
Causal	على
Causality	العلية
Causation	.
Causal connections	العلاقات العلية
Cognition	الإدراك : العلم
Cognitive State	حالة عقلية إدراكية
Coexistence	التلاقق في الوجود
Common Sense	(الرأى المشترك) الذوق الفطرى
Common sense belief	حكم الذوق الفطرى
Comprehension	الإدراك
Compresence : togetherness	المعية
Conation	النزوع
Concept	المعنى
Conception	الإدراك المعنوى
Concrete	اسم الذات
Concrete universal (Bosanquet)	الكلى الذاتى (الكل)

Conscience	الضمير
Consciousness	الشعور : الوعي
Contemplation	التأمل : الروية
Contingent	الممكن
Contigency	الإمكان
Continuous	متصل
Continuity	الاتصال
Continuum	المتصل
Correlation	التضاييف
Correlatives	المتضاييفان
Cosmos	العالم : الكون
Cosmic spirit	الروح الكونية
Creation	الخلق
Creative evolution	التطور الإبداعي
Creed	مذهب : عقيدة
Critical idealism	المذهب المثالي النقدي
Critical philosophy	الفلسفة النقدية

D

Deity	الإله
Denial-negation	السلب
Determination	الجبر
Determinism	القول بالجبر
Deterministic laws	قوانين جبرية
Dialectic (Hegel.)	طريقة هيغل المنطقية
Discursive	العقل النظري
Divinity	الألوهية
Doctrine	مذهب

Dogmas	العقائد الدينية
Dualism	القول بالاثنية أو الثنوية
Duality	الاثنية : الثنوية
Duration (Bergson)	الدهر

E

Ego	الأنا (الذات)
Element	عنصر : اسطقس
Emergent evolution	التطور الفجائي
Empirical	تجريبي
Empiricism	مذهب التجريبيين (مذهب المشبهة : ابن سينا)
Empirical cognition-experience	الحالة الشعورية الإدراكية
Energism	مذهب الطاقة
Emotion	انفعال وجداني
Entelechy	الصورة : الكمال : الفعل
Epistemology	مبحث العلم : نظرية المعرفة
Epistemological scepticism	الشك في إمكان العلم
Epiphenomena	الظواهر العرضية
Epiphenomenalism	القول بعرضية العقل
Evolutionism	مذهب التطور
Experience	خبرة (أحياناً إدراك)

F

Fact	حقيقة واقعة
Feeling	وجدان
Fictionism-Philosphy of "as if"	(المذهب الأسطوري : فلسفة كأن)
Finite	جزئي : متناه
Finite minds	العقول الجزئية

Flux	التغير
Fluxionism (opp. Substantiatism)	مذهب التغير (القول بتجدد الأعراض)
Form	صورة : مثال
Formal	سورى : شكلى

G

Gnostic	العارف (غنوسطى)
Gnosticism	الأدرية
Godhead	الألوهية

H

Harmony	الانجام : التناسب
Highest good	الحير الاعظم
Holism (General Smuts)	فلسفة « الكل »
Hypostatise	يحسم
Hylozoism	القول بحيوية المادة

I

Idea	فكرة
Ideal	مثال
Idealism	المذهب المثالى
Identity	الهوية : الهوهو : الذاتية
Immanent (opp. trarscenden)	داخل فى : باطن
Immediate experience	الخبرة المباشرة
Immediate feeling	الوجدان المباشر
Immediate perception	الإدراك الحسى المباشر
Immortality	البقاء : الخلود
Implication	التضمن
Individuality	الفردية

Instrumentalism		مذهب التدافع
Intellect		العقل
Intensional (Scholastic)-referential (modern)		دلالة اللفظ على الأفراد
Intrinsic value		القيمة الذاتية
Introspection		التأمل الباطني
Intuition		الذوق : البديهية
Intuitionism		المذهب الذوقي
	J	
Judgment		الحكم
	K	
Knowable		المعلوم
Knowledge		العلم
Knowledge by acquaintance		المعرفة بالشئ
	L	
Libertarianism		القول بالاختيار
	M	
Manifestation		مظهر : مجلي
Materialism		المذهب المادي
Matter		المادة : المهيولى
Mechanism		المذهب الآلي
Mechanical causation		العلية الآلية
Mechanical theory		النظرية الآلية
Mediumship		وسيط
Metaphysics		(الميتافيزيقا) علم ما بعد الطبيعة
Method of agreement		قانون الاتفاق (في المنطق)
Method of concomitant variation		قانون التغير النسبي (منطق)

عيني	Method of difference	قانون الاختلاف (منطقي)
البقاء	Monads	القدرات الروحية
ال	Monadism	مذهب القدرات الروحية
مبحث	Moral obligation	التبعية الخلقية
مذهب	Moral principle	المبدأ الخلقى
مذهب	Moral value	القيمة الخلقية
مذهب	Multiform pluralism	القول بتعدد الكثرة
	Mysticism	التصوف
القوة	Mystical experiences	أحوال الصوفية
مذهب	Mystical realism	المذهب التصوفي الواقعي
جزء	Myth	أسطورة

N

الإد	Natural selection	الانتخاب الطبيعي (بقاء الأصح)
الت	Naturalism	المذهب الطبيعي
الظ	Neutral monism (Russell)	مذهب الوحدة المتعادلة
erl	Neutral stuff	المادة المتعادلة
الت	Nea-Kantianism	المذهب الكنتي الجديد
مذ	Neo-transcendentalism	المذهب التجريدي الجديد
الت	Noematic <i>noème</i>	Husserl { معقولى عقلى
و	Noetic <i>noëse</i>	
الآ	Noological method	(Eucken) طريقة البحث العقلى الصرف
المذ	Norms	قوانين أو مقاييس
فر	Normative	معيارى

O

المذ	Object	عين أو موضوع
المذ	Object as such (Gegenstand-theoie)	الموضوع من حيث هو

Objective	عيني أو موضوعي
Objective immortality	البقاء أو الخلود العيني
Objective Qualities	الكيفيات العينية
Ontology	مبحث الوجود
Ontological idealism	مذهب الوجود المثالي
Ontological fluxionism	مذهب الوجود المتغير
Ontological substantialism	مذهب الوجود الجوهرى

P

Panlgoism	القول بالعقل العام
Pantheism	مذهب وحدة الوجود
Particular	جزئى
Passive	منفعل
Perception	الإدراك الحسى
Personality	الشخصية
Phenomena	الظواهر
Phenomenalism	مذهب الفائلين بالظواهر } Hegel & Husserl مبحث الظواهر }
Phenomenology	
Philosophic scepticism	الشك الفلسفى
Pluralism	مذهب الكثرة
Plurality	التعدد
Plurality in unity	وحدة الكثرة
Point instants	الآنات
Positivism	المذهب الوضعى
Postulate	فرض
Potentiality	القوة
Practical reason	العقل العملى
Pragmatism	المذهب العملى

Prehensions	روابط
Presupposition	افتراضات
Primary qualities	الكيفيات الأولى
Principle of cuassation	قانون العلية
Principle of contradiction	قانون التناقض
Principle of determinism	قانون الجبر
Principle of indeterminism	مبدأ الإمكان الصرف
Psychical factors (Broad)	العوامل النفسية
Psychical phenomena	الظواهر النفسية
Psychoid (Driesch)	العقل غير الممكنسب
Purposive activity	الأفعال الغائية
Puré motion-space-time (Alexander)	الحركة البحتة

Q

Quality	الكيف
Quantity	الكم

R

Rational soul	النفس الناطقة
Rationalism	المذهب العقلي
Reality	الحقيقة
Realism	المذهب الواقعي
Recapitulation theory	نظرية الاعادة
Reflection	التنظر
Relation	النسبة : الإضافة
Relativity	النظرية النسبية

S

Scepticism	مذهب الشك
------------	-----------

Secondary Qualities	الكيفيات الثانية
Self contradiction	التناقض الذاتي
Self-consciousness	الشعور بالذات
Self-determination	الجبر الذاتي
Sence	حاسة
Sensum (plu. sensa : Broad)	المحس
Sense data	مادة المحس
Sense perception	الإدراك المحسى
Sensation	الإحساس
Sensible world	العالم المحسوس
Simutaniety	التلاقى فى الزمان الواحد
Soul	النفس
Speculation	البحث النظرى
Speculative reason	العقل النظرى
Spirit	الروح
Spiritual categories	المفولات الروحية
Spiritual monism	القول بوحدة الروح
Spiritnal pluralism	القول بتعدد الروح
Spiritual vision	الشمود
Spontaneous generation	التولد التلقائى
Stuff-Matter	المهيولى

T

Teleology	الغائية
Tertiary qualities	الكيفيات الثالثة
Thatness	الانية
Theism	مذهب المؤلهة
Theory of knowledge	نظرية المعرفة

Theory of psycho-physical-parallelism	نظرية الموازنة بين الجسم والعقل
Thing-in-itself	الشيء بالذات
Transcendental	تجريدي
Transcendental Being-Absolute-Spirit	الوجود المطلق : الروح المطلق
Transcendental Criticism	الفلسفة النقدية التجريدية
Transcendentalism	مذهب التجريد
Tychism	مذهب القائلين بالصدفة

U

Uncosciouness	اللاشعور
Uniformity	الاطراد في وقوع الحوادث
Uniform pluralism	القول بوحدة الكثرة
Universal	الكلّي
Universal consciousness	العقل الكلّي
Ultimate Reality	الحقيقة الأولى : المبدأ الأول
Ultimat values	الثل الأعلى : القيمة الذاتية

V

Value-experience-experience of value	إدراك القيم
Vitalism	المذهب الحيوي
Voluntarism	مذهب الإرادة

W

Whatness	الماهية
----------	---------

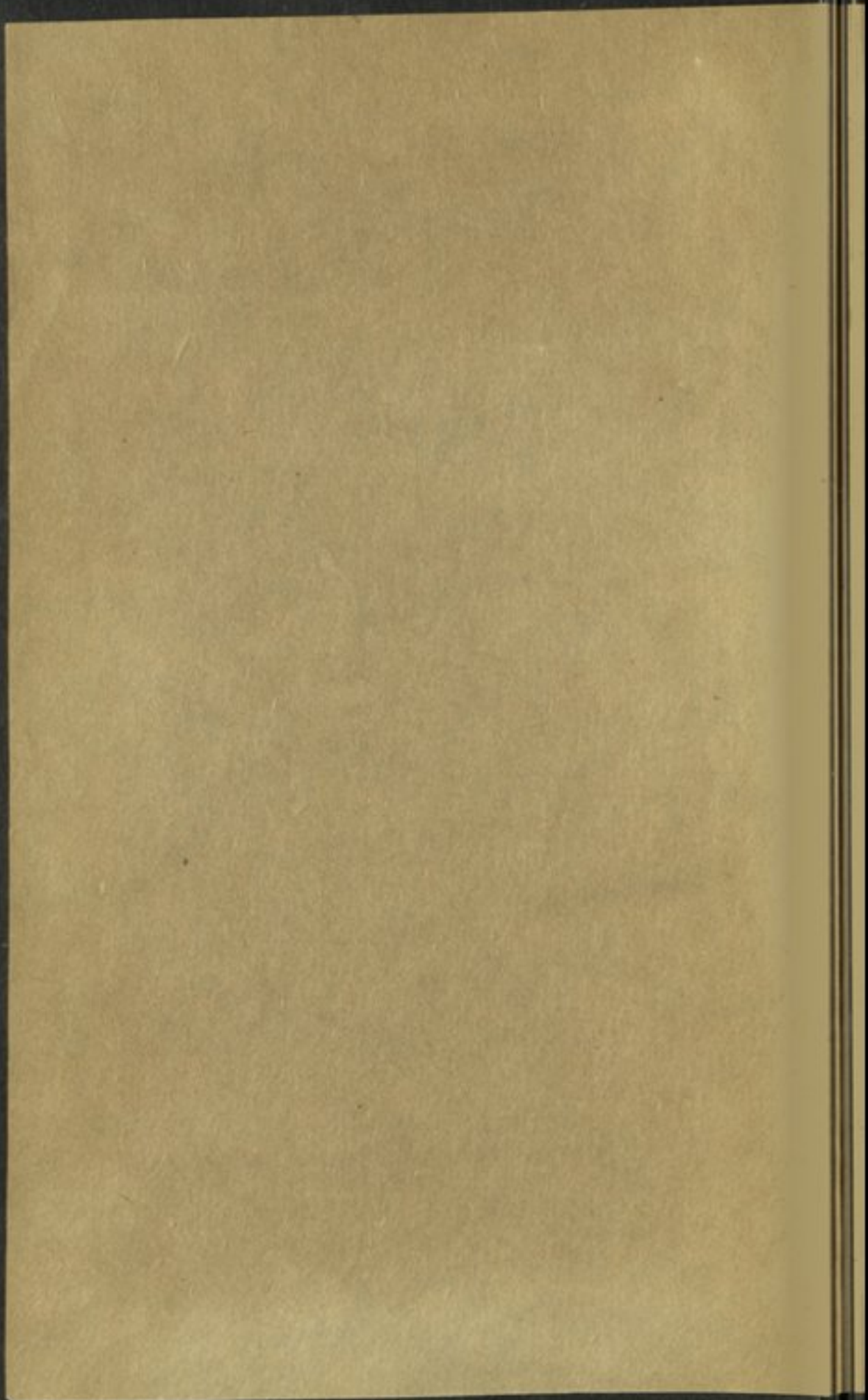
فهرست الكتاب

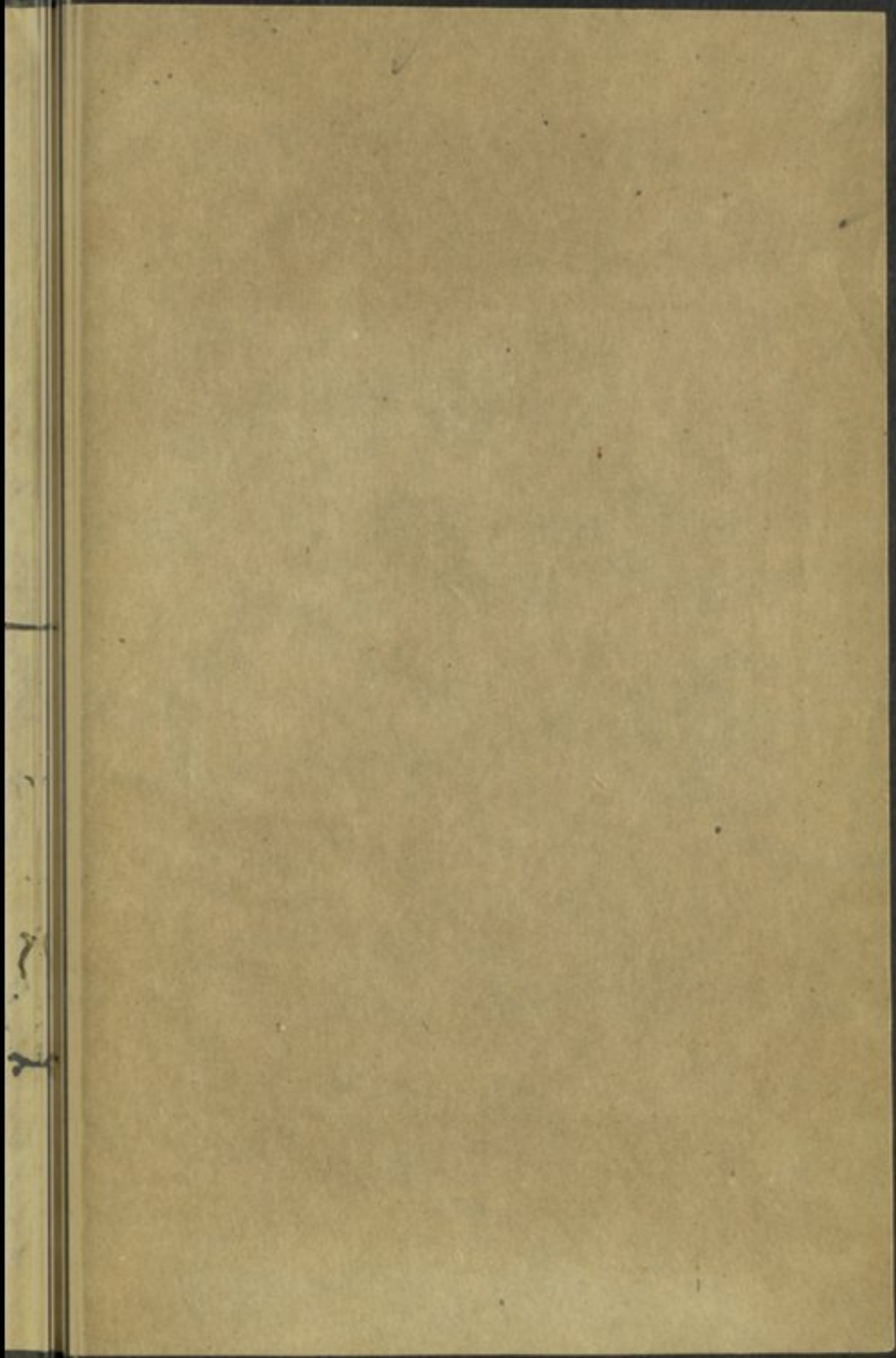
الصفحة	الموضوع
ج	مقدمة المترجم
٣	تحديد الفلسفة وفروعها
	مسائل الفلسفة:
١٠	١ - مسائل الوجود وحلولها
١٩	ب - مسائل المعرفة وحلولها
٢٦	ج - مسائل القيم وحلولها
٣٠	د - وصف المذاهب الفلسفية
٣٣	وصف عام لفلسفة المحدثين والمعاصرين
	المذهب الماري
	مذهب الطاقة: المذهب الوضعي في ألمانيا
٤٣	(١) هيكل
٤٨	(٢) استولد
٥١	(٣) ماخ
	المذهب المثالي المطلق
٥٦	(٤) ت. ه. جرين

الصفحة	الموضوع
٦١	(٥) برادلي
٦٧	(٦) بوزنكيت
٧١	(٧) فيكونت هولدين
٧٤	(٨) رافيسون موليان
٧٧	(٩) رينوفيه
٨١	(١٠) لاشليه
٨٥	(١١) كروس
٨٩	(١٢) جنتل
٩٣	(١٣) رويس
٩٨	(١٤) هكنج
مذهب التعدد الروحي أو الكثرة الروحية	
١٠٤	(١٥) إرل بلفور
١١٠	(١٦) جيمس وورد
١١٤	(١٧) صورلي
١١٧	(١٨) تيلور
١٢٢	(١٩) لسكي
مذهب التجريد الجديد	
١٢٦	(٢٠) ليهان

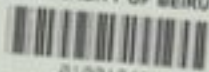
الصفحة	الموضوع
١٢٩	(٢١) كوهن
١٣١	(٢٢) وندلباند
١٣٧	(٢٣) أيكن
١٤١	(٢٤) هصرل
مذهب الحياة	
١٤٨	(٢٥) برغسون
١٥٥	(٢٦) دريش
١٦١	(٢٧) وليم جيمس
١٦٧	(٢٨) ديوى
١٧٠	(٢٩) فاينجر
مذهب الواقع	
١٧٥	(٣٠) ألكسندر
١٨٠	(٣١) هبوس
١٨٤	(٣٢) لويد مورغان
١٨٩	(٣٣) هويتهد
١٩٥	(٣٤) مور
١٩٩	(٣٥) بروض
٢٠٥	(٣٦) إرل رصل بمكاف

الصفحة	الموضوع
٢٠٩	(٣٧) ما كتجرت
٢١١	(٣٨) سنتيانا
٢١٥	(٣٩) جنرال اسمطس
٢٢١	الوفاق بين العلم والفلسفة والدين في العصر الحاضر
٢٣٥	أهم المصطلحات الفلسفية الواردة في الكتاب ...





وولف، ابراهيم
فلسفة المحدثين والمعاصرين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001241



AMERICAN
UNIVERSITY of BEIRUT

